

أزمة العصر

محمد محمد حسين



حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار عكاظ
جدة - طريق الميناء - ص . ب ٩٤١
الرياض - شارع التلفزيون ص . ب ٢٩٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أزمة العصر

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة	الفقرة
مقدمة	٧	-
أزمة العصر ومعركة بين القديم والجديد	٩	١
ميادين الصراع	١٤	٢
السلطة الدينية والسلطة السياسية	١٨	٣
الخلافة الإسلامية : الخلافة أو الإمامة العظمى لرشيد رضا	٢٣	٤
الخلافة الإسلامية : النكير على منكرى النعمة لمصطفى صبرى	٢٧	٥
الجامعة الإسلامية والجامعة القومية .	٣٢	٦
رفض الجامعة القومية	٣٦	٧
رفض الجامعة الإسلامية	٤١	٨
التوفيق بين الجامعة القومية والجامعة الإسلامية	٤٥	٩
الجامعة المصرية والجامعة العربية	٥٠	١٠
سقوط الخلافة الإسلامية	٥٦	١١
الإسلام ونظم الحكم المعاصرة	٦٣	١٢
الديمقراطية والاشتراكية والبرالية : أين هى من الإسلام ؟	٦٧	١٣
موجة من الإلحاد ثم عودة إلى الإسلام	٧٢	١٤
الدين والمكتشفات العلمية الحديثة	٧٧	١٥
الإلحاد والمنطق السليم	٨١	١٦
أستحضار أرواح الموتى	٨٦	١٧

الموضوع	الصفحة	الرقم
الحياة الأخرى في القرآن الكريم	٩١	١٨
القرآن والمكتشفات العلمية الحديثة	٩٦	١٩
طنطاوى جوهري في تفسير القرآن	١٠١	٢٠
التغريب	١٠٥	٢١
توجيه التغريب على أسس علمية مدروسة	١١٠	٢٢
الحرية	١١٥	٢٣
تحرير المرأة	١٢٠	٢٤
قاسم أمين	١٢٥	٢٥
المجتمع المختلط	١٢٩	٢٦
المرأة والأعمال العامة	١٣٤	٢٧
الأدب في ميدان الصراع بين القديم والجديد	١٤٠	٢٨
اللغة في ميدان الصراع بين القديم والجديد	١٤٦	٢٩
رد على دعاة تطوير اللغة وتطوير الخط	١٥٢	٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، قياما بحقه ، ووفاءً بنعمه ، واستجلاباً لرضاه ، ودفعاً لسخطه .
والصلاة والسلام على النعمة المسداة ، والرحمة المهداة ، نبي الله ومصطفاه ، سيدنا
محمد بن عبدالله . وبعد ..

منذ ربع قرن ، حين صدر كتاب (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) أشار
عليّ جماعة من الأصدقاء أن الخُصّه في مختصر يقربه من غير المتخصصين . وكنتُ
مقتنعاً بما أشاروا به . فالكتاب يقع في أكثر من ثمانمائة صفحة ، تثقله النصوص
الكثيرة والحواشي التي تحيل إلى المراجع وتتقصّى دقائق المواضيع المتنوعة التي تناوها
الكتاب . وهو في طوله وفي جفاف تناوله لما عاجله من المسائل لا يصبر عليه إلا
الباحث المدقّق الذي تعود الصبر وحبس النفس وبذل غاية الجهد في الاستقصاء .

ومع اقتناعي بضرورة كتابة هذا الملخص المختصر ، كانت تصرفني عن إنجازهِ
مشاغل شتى وأسباب متعددة ، لعلّ من أظهرها أن مما يثقل على أي كاتب أن يعيد
كتابة ما كتب ، لأنه لا يجد في عمله هذا جديداً ينشّطه ويحفّز همّته ويشبع تطلعه .

ثم إن إحدى الإذاعات العربية دَعَتْنِي منذ عام إلى أن أُعد لها ثلاثين حديثاً
(تدور حول القضايا الأدبية البارزة وموقف الإسلام منها ، مدة كل حديث منها في
حدود عشر دقائق) ، فرأيتُ فيما دَعَتْنِي إليه فرصة مواتية لتحقيق المشروع القديم ،
في الحيز الأمل الذي يناسب غير المتخصصين من القراء ، والذي يلائم طاقات
الشباب منهم على وجه الخصوص ، ولا يكلفهم ما يشقُّ عليهم .

وقد ساقنى القلم فى أثناء إعداد هذه الحلقات الثلاثين إلى موضوعات تناولتها من قبل فى كتب أخرى غير (الاتجاهات الوطنية) ، مثل (حصوننا مهددة) و (الإسلام والحضارة الغربية) و (الروحية الحديثة) . ولم يغفل الأمر من إضافات هنا وهناك ، مما لا بد أن يعين للكاتب حين يعيد عرض بعض أفكاره .

واخترت لهذه المجموعة من الأفكار والموضوعات التى جالت فيها هذه الحلقات اسم (أزمة العصر) ، لأن كل ما تناولته هو فى غالب أمره بعض ما يشغل أبناء هذا العصر من المسلمين ، مما تتضارب فيه الآراء ، وتختلف فيه المذاهب ، وتثور حوله المعارك . وهو مما أورث أهل هذا العصر ، وشبابهم على وجه الخصوص ، حيرة لا يكادون يهتدون فيها إلى وجه الصواب ، إلا من عصم الله ، ممن أضاء لهم الطريق ، فأبصروا الحق أبلغ لا يلتبس بشيء . وقليل ما هم .

وقد تركت هذه الحلقات كما أعددتها للإذاعة . ورأيت أنها فى قصرها أدنى إلى تحقيق ما استهدفته ، راجيا أن أكون قد بلغت بها ما كنت أرجو وما كان يرجو الأصدقاء . وبالله التوفيق . ولا حول ولا قوة إلا به .

الرياض فى صباح الأربعاء ١٣ من المحرم ١٣٩٩ هـ
(١٣/١٢/١٩٧٨ م)

محمد محمد حسين



أزمة العصر ومعركة بين القديم والجديد

أحمد الله تعالى وأسأله التوفيق والسداد • وأصلى وأسلم على سيد ولد آدم محمد بن عبدالله ، صلاة دائمة موصولة عدد من اهتدى به ودخل في رحمة الله بسببه من خلق الله • وبعد ..

هذه سلسلة من الأحاديث القصيرة تدور حول القضايا الفكرية البارزة التي شغلت أدياء العربية المعاصرين ، دعتني إلى التحدث فيها إذاعة الرياض ، فسميتها « أزمة العصر » ، وقصدت بذلك القلق الذي يعيشه أبناء هذا العصر ، والشباب منهم على وجه الخصوص ، ولا يدرون كيف يخرجون منه . وهو قلق ناشئ عن الصراع الذي يدور في نفوسهم بين القديم الموروث والجديد الطارئ ، نتيجةً لالتقاء الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية • فأهل هذا العصر - وشبابهم بخاصة - يريدون أن لا يحرموا من الإستمتاع بكل ما يستمتع به الغربي ، ولكنهم يقفون موقف القلق والحيرة أمام ما يحرمه الإسلام من هذه المتع واللذات ، وأمام ما يستنكره المجتمع ويرفضه العرف وتآباه التقاليد من هذه العادات •

وأهل هذا العصر يسمعون ويقرءون ما يترامى إليهم من أخبار وأحداث ، وما يجد من مذاهب ونحل متناقضة متضاربة ، في السياسة وفي الاقتصاد وفي السلوك ، يتنافس أصحابها في تزيينها وفي إقامة الحجة على أنها هي السبيل الأمثل لإسعاد الناس وحل مشكلاتهم • وبعضها يعادى الدين الذي نشئوا على احترامه وتوقيره ، والذي يحترمه ويوقره كل من يحيط بهم من الأهل والجيران ، فيصفه بأنه وهمٌ وخداع اخترعه في زعمهم رجال الدين لتمكين قبضتهم من رقاب الناس ، وإحكام سيطرتهم

على المجتمع ، واستغله المترفون والأغنياء لتسكين ثورة المحرومين والفقراء • يسمع الناس ذلك كله لا يحول بينهم وبينه شيء ، ولا تغنى فيه الرقابة بكل أدواتها ، بعد أن سيطرت المدنية الحديثة على الأثير ، واستخدمت موجاته الصوتية والضوئية ، فأفلت من كل القيود ، ودخل إلى كل البيوت ، أصواتاً وصُوراً •

وسط هذا الخضم من المذاهب والآراء وقع الناس في حيرة لا يجدون لهم منها مَخْلَصاً ولا يهتدون فيها طريقاً • يُشفقون من الكفر والانحراف عن طريق الإسلام ، ويطمعون في نعيم الجنة ويخافون عذاب جهنم ، ولكنهم يعجزون عن دفع أسباب الكفر والانحراف ، ويعجزون عن القطع برأى حاسم يسكنون إليه • وتقصر طاقاتهم وعزائمهم عن اختيار طريق وسط هذه الطرق المتشابهة المتشابكة ، يعضون فيه بقدم ثابتة ونفس مطمئنة •

وصيداً المذاهب والآراء أمر طبيعي في المجتمعات البشرية على اختلافها • وهو سنة من سنن الله في خلقه • وهو في أكثر الأحيان يتخذ شكل الصراع بين أنصار القديم الموروث من المحافظين ، وبين أنصار الجديد المبتكر أو المستجلب من دعاة التطور • فهو معركة قديمة جديدة دائمة ، لأنه مظهر من مظاهر الحياة في المجتمعات البشرية ، ولأن الجمود صفة لا وجود لها في الحياة • فالحياة حركة • ولو أراد الناس الجمود وقصدوا إليه ما استطاعوه • والذين يُحكِّمون إغلاق النوافذ والأبواب في السلم • يُكرِّهون على فتحها في الحرب • فكل شيء في الحياة متغير • والناس مضطرون إلى أن يلائموا بين أنفسهم وبين الواقع المتغير ماداموا لا يستطيعون دفعه أو تغييره •

والواقع أن المعركة بين أنصار القديم الموروث وبين أنصار الجديد الطارىء ضرورية لسلامة المجتمع • فالمحافظون يَحْدُّون من طيش المندفعين إلى طلب كل غريب طارىء ، ومن تَزَقُّ الذين يجرون وراء كل طريف برّاق ، مما يُفقد الحياة ما يلزمها من الاستقرار الذي يحقق الطمأنينة ويمكِّن من البناء • ودعاة التطور يَحُولُون بين المحافظين وبين الركون إلى الكسل ، ويُخرجون الجماعات عما قد تصاب به من

التبّد والجمود والركود ، نتيجة العكوف على الموروث وتكراره تكراراً آلياً يعطل التفكير والملكات الإنسانية . وذلك لأن دعاة التطور يُجبرون المحافظين على الدفاع عن أنفسهم ، فيحتاجون في هذا الدفاع إلى التسلح بأسلحة خصومهم ودراسة ما يستطرفون من مذاهب . في حين أن مهاجمة المحافظين لدعاة التطور تضطربهم إلى الحدّ من غلوائهم ، وتنبيه المجتمع إلى مواطن الضعف والشرّ فيما يستجلبون . ومن الطبيعي أن يوجد متطرفون في كلّ من الجانبين ، ولكن البقاء في كل ذلك للصالح دائماً، وللصالح وحده . تلك هي فطرة الله التي فطر عليها الخلق كلّهم، وناموسه الذي لا يتبدل ، والذي اقتضى أن يختلط الحق والباطل ، وأن تتباين مسالك الناس وتتنوع مذاهبهم وتجاربهم ، باختلاف طبائعهم وبيئاتهم . وذلك لكي ينقل بعضهم عن بعض ، ويتعلم بعضهم من بعض . والله سبحانه وتعالى يقول (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) . ومن عدل الله سبحانه وتعالى ودقيق حكمته وخفيّ ألطافه أن هذا الصراع الدائم بين الحق والباطل ، وهذا التبادل المستمر بين المعارف والتجارب ، لا يتكشف آخر الأمر إلا عن النفع والخير . وما أروع تصوير القرآن الكريم لهذه الحقيقة الكبرى حين ضرب لها مثلاً : أولها من السيول التي يختلط ماؤها الصافي بالرّم والحيف والأقذار والصخور والأوحال ، ثم لا يبقى على طول الطريق وتوالي المنعرجات إلا الأنهار العذبة الفياضة بالخير والبركات . والثاني من المعادن التي تتخذ من بعضها الحليّ كالذهب والفضة ، وتتخذ من بعضها الآخر الأدوات والأمتعة كالحديد والنحاس . فهي لا تُستخرج نقيّة خالصة ، ولكنها مخلوطة دائماً بالعناصر الغريبة التي لا تلبث أن تصهرها النار ، ثم لا يبقى إلا الحرّ الخالص من جواهرها النافعة (أنزل من السماء ماءً ، فسالت أوديةً بِقَدَرِها ، فاحتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رابياً . ومِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُه . كذلك يضربُ الله الحقَّ والباطل . فأما الزَّبَدُ فيذهبُ جُفَاءً . وأما ما نفع الناسَ فيمُكثُ في الأرض . كذلك يضربُ الله الأمثال) .

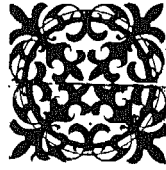
ذلك هو مَثَلُ القديم والجديد . والمعركة بينهما هي المعركة التي تقوم بين جراثيم الأمراض الدخيلة الغازية وبين كرات الدم البيضاء المدافعة . فالمعركة بينهما هي نفسها مظهر طبيعي لسلامة الجسم . ومن الحق أن كثيرا من الأفراد يسقطون صرعى في المعركة إذا تغلبت الجراثيم الدخيلة الغازية ، كما تسقط بعض الأمم ويفنى كيانها وتزول خصائصها ومقوماتها تحت تأثير الدخيل من الآراء والعادات إن أُتيح له الظهور . ولكن في ذلك خيرا شاملا عاما لا يدركه إلا من يحيط بالمعركة كلها من أولها إلى آخرها ، زمانا ومكانا . وسبحان من أحاط بكل شيء علما . كذلك تقوم المعارك بين الغريب الطارىء من العادات وبين الموروث التالذ من التقاليد .

وأكثر ما يشتد الصراع بين القديم والجديد في عصور الانتقال ، وعند التقاء الحضارات المتعارضة في الغزو . لأن الضعيف والمغزو يكون في وضع نفسي يصعب عليه فيه الاختيار ، لافتتانه بالقوى وشعوره العميق بأنه هو الأفضل والأصلح ، ولأن حضارة القوى تكون أمرا واقعا يفرضه الغالب في أكثر الأحيان ، وليس اقتراحا يُترك له الخيار في الأخذ به أو تركه .

من أجل ذلك ينقل الضعيف المغلوب حين ينقل عن القوى الغالب أسوأ ما عنده من مظاهر الترف والافتنان في المتع وتقليد المظهر الخارجي في الملبس والمأكّل والعادات . ولكنه لا يصل إلى تقليد اللب والصميم في الخلق والسلوك ، لأنه لا يطبق تكاليفه ولا يقوى على احتمال المشاق التي تكتنف الوصول إليه .

وقد يكون المنتصر الأقوى في صراع الأمم وفي الحروب هو الأضعف حضارة وفكرا . وعند ذلك ينقل الغالب عن المغلوب ، ولكنه في هذه الحالة ينقل نقل الناقد البصير فيعرف ماذا يأخذ وماذا يدع ، ويهضم ما ينقله مما يستحسنه ويمتصه ويفنيه في ذاته ولا يفنى ذاته فيه . وكذلك كان الشأن في الرومان حين غزوا اليونان ، وفي العرب حين انتصروا على دولتي الزمان في الشرق والغرب : الفرس والروم .

هذا الصراع بين القديم الموروث وبين الجديد الطارئ ، الذى نعيشه الآن ،
والذى نشأ عنه فكرٌ مُبَلَّل مضطرب لا تتضح أمامه الرؤية هو السبب المباشر فيما
سمّيته (أزمة العصر) . وفى ظلّ هذا الصراع نشأت مسائلٌ واقضيّةٌ لم يكن لها
وجود قبل هذا الصراع ، وجَدَّتْ مطالبٌ ومطامحٌ لم يكن الناس يتطلعون إليها من
قبل : وضاق الناس بأشياء كانوا يعيشونها راضين ولا يضيّقون بها . وسأحاول فى
هذه السلسلة من الأحاديث أن أتناول أبرز هذه المجالات الجديدة . وبالله
التوفيق .



ميادين الصراع

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ..

حين تلتقى الحضارات لا يدور الصراع بينها حول الحقائق الثابتة التي لا تتغير بين بلد وبلد ، ولا تتميز في قوم عنها في آخرين ، ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان ، كالدراسات النظرية من رياضية وطبيعية وكيميائية وحيوانية ونباتية ، وممارساتها على اختلاف أنواعها في عالم الصناعة والطب والزراعة • فالمصنع لا يوصف بالكفر أو الإيمان ، ولا يصنّف في مذهب من المذاهب الفكرية أو الاقتصادية ، لأنه يُنقل من بلده - أيّا كان هذا البلد - إلى بلدٍ آخر ، أيّا كانت صفته أو دينه ، فيعمل بأيدي أصحابه الجدد كما كان يعمل بأيدي أصحابه القدماء • والحقيقة النظرية رياضية كانت أو طبيعية أو كيميائية هي هي برموزها وأرقامها ومعادلاتها في كل مكان ، يشترك في حقائقها كل الناس بقدر واحد لا مجال للخلاف أو التفاوت فيه ، لأن من الممكن إعادة التجربة ومراجعتها والاستيثاق من صحتها والانتفاع بنتائجها على اختلاف الأزمنة والأمكنة • وإنما يتعلق الخلاف ويدور الصراع دائماً حول ما تقوم به شخصية الفرد والجماعة ، مما يميزها عن غيرها من الجماعات • ومصدر الشخصية في كل الأحوال ، وصورتها وظلّها في الوقت نفسه ، هو الدين والأخلاق ، والتقاليد والعادات ، والفنون والآداب • لأن الأمر في كل هذه المجالات جميعاً لا يتصل باللموس المحسوس أو المعقول المشترك ، كما هو الشأن في الدراسات التجريبية أو الرياضية • ولكنه يتصل بقيم الخير والشر ، والجمال والقبح ، والحق والباطل ، والحرام والحلال • وهي تعتمد في كثير من الأحيان على ما وراء المادة من الغيب الذي لا تتفق عليه العقول ولا تشمله التجربة ولا يتناول إليه الفكر • ولأن الأمر يجري في

هذه المجالات على سُنَّة من سنن الله الكبرى في خلقه ، حين جعلهم شعوبا وقبائل • ولو شاء لجعلهم أمة واحدة •

لذلك تناول الصراع بين القديم الموروث والجديد الطارئ هذه المجالات التى بها تقوم شخصية الفرد وشخصية الجماعة ، فى السياسة ، وفى المجتمع ، وفى الفنون والآداب •

فى السياسة تناول الصراع موضوعات مختلفة ، وازن الناس فيها بين نظام الحكم الإسلامى الذى يجمع بين الدين والدولة ، وبين نظم الحكم الغربية الحديثة التى تفرق بينهما • ووازن الناس - تبعاً لذلك - بين التصور الإسلامى للأمة ، الذى تحدّه حدود العقيدة ، دون نَظَرٍ إلى الحدود الأرضية أو العروق الجنسية ، فالمسلمون حيثما كانوا أمة واحدة ، وبين التصور الغربى الحديث ، الذى يقوم على الحدود الأرضية والعروق الجنسية • ووازن الناس كذلك بين نظام الحكم الإسلامى الموروث وبين النظم المختلفة التى تتوزع نظم الحكم الغربية ، من ديمقراطية واشتراكية ولبيرالية • وسوف أتناول هذه المواضيع واحدا بعد الآخر • وأول ما أتناوله منها : الدين والدولة •

من المعروف أن ما يسمونه « عصر النهضة » فى أوربا جاء نتيجة جهاد طويل بين رواد الفكر اللبرالى المتحرر وبين الكنيسة ، التى كان نفوذها على الملوك والأمراء والعلماء وقتذاك واسعا شاملا لا يُحَدُّ • فسيف الحرمان مسلط على رقاب كل من تحدثهم نفوسهم بتجاهل البابا ، فضلا عن مخالفته • وقد كان للناس عظة رادعة فيما جرى للإمبراطور هنرى الرابع من إذلال البابا جريجورى السابع له ، حين اختلف معه على حق تعيين الأساقفة على اقطاعاتهم • فأعلن عصيانه ، وأحل أتباعه الأمراء من ولائهم له • فاضطر الإمبراطور أن يذهب إليه تائباً فى (كانوسا) سنة ١٠٧٧ م ، وأن ينتظر الغفران ثلاثة أيام ، مدثرا بالخيش وهو حافى القدمين وسط الثلج فى فناء القلعة • ولن ينسى التاريخ من أحرق ومن نُكِّل به تحت آلات التعذيب فى

محاكم التفتيش من رواد علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم الفلك ، بتهمة الخروج على
تعاليم الدين ، أو بتهمة ممارسة السحر الأسود •

هذا الصراع الطويل المرير ، الذى وقفت فيه الكنيسة سداً بين أوروبا وبين
التقدم ، وظهر فيه العلماء والباحثون بظهر الشهداء فى الدفاع عن مبادئهم وآرائهم
حتى الموت ، قد أتاح الفرصة لدعاة التحرر الفكرى اللبرالى ، فهدموا الكنيسة
وهدموا معها الدين • وانتهى ذلك الصراع الطويل المرير بانتصار دعاة اللبرالية
والحد من سلطة الكنيسة ، وحصرها فى نطاق الدين • وبذلك تحقق فصل السلطة
الدينية عن السلطة المدنية فى أوروبا ، وانكمش نفوذ البابا ، فلم يعد يجاوز طقوس
التمعيد والصلاة والزواج والجنائز • وأصبحت شئون الدولة وتدير نظام المجتمع فى يد
رجال السياسة •

قرأ أصحاب الثقافة الغربية ذلك كله فيما تداولوه من كتب التاريخ ، التى فرضها
الاستعمار فى مختلف بلاد المسلمين على مراحل التعليم المختلفة تحت اسم (تاريخ
العصور الوسطى) • وقرأوا معه فى هذه الكتب أن ذلك قد استتبع تحرير الفكر ،
فنشط من عقاله ، واندفع يرتاد ويكشف فى حرية لا يهددها الخوف ، حتى وضع أوروبا
فى مكان الذروة من القوة والمال ونفوذ السلطان والعرفان • وقرأوا فيما درسوا من كتب
التاريخ المقررة التى كانت مفروضة على التلاميذ تحت اسم (عصر النهضة) أن
تقييد سلطة الكنيسة وفصل الدين عن الدولة كان من أبرز أسباب النهضة ، أو ما
كان يسمى فى بعض الأحيان بالإحياء • قرءوا ذلك كله • وخيّل إليهم أن الشعوب
الإسلامية تعيش فى حالة تشبه حالة أوروبا فى العصور الوسطى • وساعد على تمكن
هذا الوهم أن الذين يتكلمون باسم الإسلام كانوا فى تخلفهم وجهلهم جزءاً من العالم
الإسلامى ، الذى مئسّى فى كل قطاعاته ، فى جماعاته وأفراده ، على اختلاف
ثقافتهم ، بأسباب التخلف والجهل • وقد دفعهم تخلفهم الثقافى فى كثير من الأحيان

إلى التورط في محاربة بعض العلوم النافعة بدافع من جهلهم لها ، فزعموا أنها تخالف روح الدين • وبذلك أصبحت آراؤهم موضع السخرية والتندر •

ثم إن نظام الوظائف الحكومية الجديد في كثير من البلاد الإسلامية ، وفي عهود الاستعمار بخاصة ، قد أدى إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية من ميادين الإصلاح وتخلّفهم عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم في المساجد • وأصبحت الوظائف الحكومية وأدوات التوجيه العلمى والثقافى والاجتماعى فى أيدى أصحاب الثقافة الأوروبية ، الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية والعمرانية على نمط ما تعلموه • فكان من جملة ما نقلوه نقلاً أعمى ، السخريةُ برجال الدين ، والاستخفافُ بأمر الدين تبعاً للاستخفاف برجاله •

وكانت هناك قوة خفية غير ظاهرة تؤيد هذا الاتجاه وتُمدّ ناره بالوقود والحطب ، بما تلقّاه من أكاذيب ، وما تزوّره من مبالغات ، وما تدبّجه من مقالات ، تلبس ثوب الدفاع عن الحرية ، والرثاء لضحايا الظلم والاستبداد • وربما كانت اليهودية العالمية الطامعة فى تقويض نظام الخلافة الإسلامية تمهيداً لاغتيال فلسطين واتخاذها وطناً قومياً لليهود العالم فى مقدمة هذه القوى الخفية • فقد كان من أهداف الصهيونية العالمية - ولا يزال - أن تفسد التفكير الإسلامى والمسيحى على السواء ، نشرًا للفوضى التى يظنون أنها هى السبيل إلى سيادتهم على العالم ، حسب ما يتوهمونه ويسعون إليه • وكان الاستعمار الطامع فى اقتسام العالم الإسلامى والاستيلاء على بترولهِ وأسواقهِ ، شريكاً للصهيونية العالمية فى هذا التدبير •

والى لقاء قادم إن شاء الله ، أقدم فيه نماذج من الأدب الذى تناول هذا الموضوع • والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته •



السلطة الدينية والسلطة السياسية

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ..

من أسبق ما ظهر في الدعوة إلى التفريق بين السلطة الدينية والسلطة السياسية كتاب (أم القرى) لعبد الرحمن الكواكبي ، الذي طبع في مصر سنة ١٨٩٩ م • والكتاب يعالج أسباب ضعف الشعوب الإسلامية وتخلفها • وقد اتخذ هذا العلاج صورة مؤتمر إسلامي عام تخيل المؤلف أنه يجتمع في مكة كل عام ، ويضم ممثلين عن البلاد الإسلامية في كل أصقاع الأرض من علمائهم وزعمائهم • يصف كل واحد منهم ما عند قومه من أسباب الضعف والتخلف مبينا ما يقترحه من علاج • والجديد الخطير في الكتاب هو دعوة المؤلف في آخره لأول مرة في تاريخ الإسلام والمسلمين ، إلى فصل الخلافة عن السلطنة ، مقترحا جعل الخلافة في العرب والسلطنة في الترك • ويبرر الكواكبي ذلك بأن الترك يقدمون السياسة على الدين ، ويزعم أن احترامهم للشعائر الدينية ليس إلا من قبيل التظاهر والمجاملة لكسب ولاء رعاياهم من المسلمين • بينما العرب ، في الجانب المقابل ، يملكون من المزايا ما يجعلهم أولى بالخلافة • فهم مشرق النور الإسلامي • وبلادهم متوسطة في موقعها الجغرافي بين المسلمين • وهم أسلم الأقاليم من الأخلاط جنسا ودينا ومذهبا • وهم أفضل أرض • لأن تكون ديار أحرار لبعدها عن الطامعين والمزاحمين •

ودعا المؤلف آخر الأمر إلى نقل الخلافة الإسلامية للعرب ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لتجديد حياة العثمانيين السياسية • ورسم اختصاصات هذا الخليفة ، فحصرها في شئون السياسة العامة الدينية • فليس من حقه أن يتدخل في شيء من الشئون السياسية والإدارية في السلطنات والإمارات • ولكنه يُصدّق على توليات

السلطين والأمراء احتراماً للشرع • ويُذكر اسمه في الخطبة قبل أسماء السلطين ، ولا يُذكر في المسكوكات • وهو يتولى بعد ذلك رئاسة هيئة شورى إسلامية • تتعقد مدة شهر في كل سنة ، قبيل موسم الحج ، في مكة • ويبين المؤلف طريقة اختيار الخليفة ، فيقول : إنه يُختار بطريق الانتخاب ، ويتجدد انتخابه كل ثلاث سنوات • ويُستحسن أن يكون هذا الخليفة قرشياً •

ولكن هذه الآراء لم تخلُ من إشارات مربية إلى موالاة الدول الأوربية المستعمرة ، مثل ما جاء في تحديد وظائف الشورى العامة ، التي لا تخرج عن تمحيص أمهات المسائل الدينية ، حين ضرب أمثلة لهذه المسائل ، فقال فيما قال : « وكفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة ، والاستفادة من إرشاداتها ، وإن كانت غير مسلمة ، وسد أبواب الانقياد المطلق ولولمثل عمر بن الخطاب » • وقال في موضع آخر : « والغالب أن الدول المسيحية التي لها رعاياها من المسلمين أو المجاورة للمسلمين تتحذر من أن يُجرَّج جمع الكلمة الدينية إلى رابطة سياسية تولد حرباً دينية • فتعتمد هذه الدول على عمل الدسائس والوسائل لمنع حصول هذا الارتباط أساساً • فما هو التدبير الذي يقتضى اتخاذه أمام تحذر الدول ؟ » وردّ الكواكبي على ذلك بكلام طويل ، في أن المسلمين المتنوّرين أدنى إلى المسالمة ، وأن العرب منهم أقرب من غيرهم للألفة وللثبات على العهد ، وأن الجهاد في سبيل الله ليس محصوراً في مجرد محاربة غير المسلمين • فكلُّ عمل شاق نافع للدين والدنيا ، حتى الكسب لأجل العيال ، يسمى جهاداً • وقال فيما أورد من كلام لبعث الطمأنينة في نفوس الدول الأوربية « ولَدَى رجال السياسة دليل مهم آخر على أن أصل الإسلام لا يستلزم الوحشة بين المسلمين وغيرهم ، بل يستلزم الألفة ، وذلك بأن العرب أينما حلّوا من البلاد جذبوا أهلها بحسن القدوة والمثال لدينهم ولغتهم • كما أنهم لم ينفروا من الأمم التي حلّت بلادهم وحكمتهم ، فلم يهاجروا منها ، كعدن وتونس ومصر ، بخلاف الأتراك • بل يعتبرون دخولهم تحت سلطة غيرهم من حُكم الله • لأنهم يذعنون

بكلمة ربهم تعالى شأنه (وتلك الأيامُ نُدْأولُها بين الناس) • فإذا علم السياسيون هذه الحقائق وتوابعها لا يتحذرون من الخلافة العربية • بل يرون من صوالحهم الخصوصية وصوالح النصرانية وصوالح الإنسانية أن يؤيدوا قيام الخلافة العربية بصورة محدودة الصورة ، مربوطة بالشورى ، على النسق الذى عرضته عليك » •

وكلامُ الكواكبي هنا متأثر بما كان يذيعه سياسة الدول الاستعمارية عن الجامعة الاسلامية ، من تخيل الخطر الذى يهدد الغربيين فى اجتماع كلمة المسلمين وارتباطهم برابطة الإسلام ، الذى يدعو إلى مجاهدة غير المسلمين ، والذى يعتبر هذا الجهاد ركنا من أهم أركان الدين •

على أن الناظر فى كلام الكواكبي يجده متأثرا بنظام البابوية الذى اتخذ مقره فى روما مهد المسيحية الأول فى أوربا ، والذى يتولى رئاسة المجمع الدينى ويتوَّج الملوك ، رعايةً لسلطان الدين • كما أن الناظر فى كلامه يريه ما فيه من تودد الى الدول المستعمرة ، ومن تهوينٍ لوقوع الأمم الاسلامية تحت حكمهم ، وإسقاط فريضة الجهاد بعد أن فسرهما تفسيراً جديداً غربياً • كما تريبه الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين كلام مستر بلنت فى كتابه (مستقبل الاسلام) الذى دعا فيه إلى نقل الخلافة للعرب ، وبينه وبين ما تكشف عنه الأيام من حوادث الثورة العربية بتدبير الإنجليز سنة ١٩١٦ م •

وشبيهُ برأى الكواكبي ما دعا إليه بعد ذلك كاتب معروف هو عبدالقادر حمزة حين نشر سنة ١٩٠٤ م مقالا فى مجلة المقتطف تحت عنوان (خطر علينا وعلى الدين) • وفيه يقول إننا نرد أسباب التأخر فى كل شيء إلى الدين • وهذا وهمٌ يصور فى زعمه استسلامنا استسلاماً أعمى إلى ماضينا الدينى الذى يجب أن نبتعد عنه كل الابتعاد • مناديا بترك الدين فى زيِّه الحقيقى ، لأننا ننفر الناس منه بإقحامه فيما ليس من شأنه •

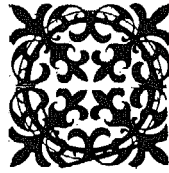
وأبرزُ ما في المقال أنه يكشف عن المصدر الذي صدر عنه الكاتب في تفكيره ، وهو تاريخ أوروبا الحديث . وذلك حين يقول : « هذه بلاد أوروبا . كان أهلها قبل العصر الذي يسمونه عصر النهضة والإصلاح متمسكين بعري الدين المسيحي ، متشيعين لكل ما يأتي من جانبه . فهازالوا يغالون ويتطرفون ، حتى انتهت بهم الحال إلى حصر الدين بُرمته في الكنيسة . ولم تمض على ذلك سنوات حتى أصبحت الكنيسة صاحبة التصرف المطلق فيهم ، توجههم إلى الحروب الصليبية ، فيعانون المشاق ويكابدون الأهوال ويهلكون ألوفاً ومئات ألوف حُباً في الدين . ثم تستأثر بالأموال فلا تجدد منهم إلا مُلبّين خاضعين ، يقدّمون إليها أموالهم باسم الغيرة على الدين . ثم تستولى على الكتاب المقدس وتحرم على غيرها فهمه وتفسيره ، فيتلقون أوامرهم بالرضى والطّوع عملاً بأوامر الدين . ثم تقف أمام العلوم مخافة أن يكون فيها ما يخالف الدين . وما زالت على حالها ، تفتت كل يوم على الدين باسم الدين ، والناس لا يعرفون إلا كلمات تسمّى الدين يتفانون في الجهاد غيرةً عليها ، حتى أخذ شعاع العلوم ينفذ إلى الأذهان وابتدأ دور النهضة . فقام القسوس وقعدوا ، آخذين بتلابيب الأمة بأسرها ينادونها : الدينَ الدين ! اطلبى النهضة والكمال والرقى من جانب الدين . وظلوا يصدّعون آذانها بهذا النداء حتى تنبّهت العقول ونظرت إلى الدين كما صوّروه لها ، فنبذه البعض ، وضعفت سلطته على البعض الآخر » .

وقد ردّ على هذه المزاعم بالأسلوب نفسه وتحت العنوان نفسه في المجلة نفسها رفيق العظم ، فقال إن نهضتنا الصحيحة لا يمكن أن تقوم إلا على أساس الدين بعد تنقيته من الشوائب ، وأن الذين يتخذون القدوة من تاريخ أوروبا الحديث ينسون أن الإصلاح المدني فيما يسمى بعصر النهضة كان تالياً للإصلاح الديني وتابعا له . فقد بدأت هذه النهضة في القرن السادس عشر الميلادي بالإصلاح الديني الذي دعا فيه لوتر إلى ترك البدع الدينية وتطهير العقائد من شوائبها .

والمقالان ، كما هو واضح - على خلاف ما بينهما في الرأي - يحتكمان إلى تاريخ

النهضة في أوروبا ، ويصدران عنه فيما يذهبان إليه • وإن كان رفيق العظم يجهل أو يتجاهل ما هو معروف من أن حركة لوثر كان من ورائها دوافع صهيونية تستهدف هدم الكنيسة المسيحية التي كانت تناصبهم العداء •

وقد ثارت المسألة من جديد في أعقاب الحرب العالمية الأولى حين فصل الكماليون الدين عن الدولة وأقاموا عبدالمجيد خليفة مجردا عن السلطة ، يقيم في الآستانة ، بينما يقيم رئيس الجمهورية في العاصمة الجديدة (أنقرة) • ثم ما لبثوا أن ألغوا الخلافة جملةً • وذلك ما أرجىء الحديث فيه إلى لقاء تال إن شاء الله • والسلام عليكم ورحمة الله •



الخلافة الإسلامية :

الخلافة أو الإمامة العظمى لرشيد رضا

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

حين هُزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى - وهي يومذاك دولة الخلافة الإسلامية - حزن المسلمون لذلك حزنا شديدا • وتردد صدى هذا الحزن بنوع خاص في البلاد العربية وفي الهند • لذلك كان سرور العرب والمسلمين كبيرا بانتصار مصطفى كمال على اليونان في حربه معها لإجلائها عن الأراضي التي احتلتها في الأناضول ، بوصفها إحدى دول الحلفاء المنتصرين • وبقدر ما كان فرحهم كبيرا بهذه الانتصارات كان حزنهم كبيرا حين خابت آمالهم بعزل الخليفة عن السلطة ثم إلغاء الخلافة • وفي ظل هذه الأحداث صدر كثير من الكتب والمقالات الصحفية والقصائد الشعرية التي تناقش نظام الحكم الجديد في تفريقه بين الدين والدولة ، تقليدا لنظم الحكم الغربية •

وكان من أوفى ما ظهر في هذا الموضوع كتاب رشيد رضا (الخلافة أو الإمامة العظمى) • نشره في سلسلة من المقالات بمجلة (المنار) الشهرية ، التي كان يصدرها في مصر ، على ست حلقات • وقد بحث فيه مسألة الخلافة من كل وجوها • ويعنينا في مقامنا هذا أن نقف في كتابه عند مسألتين يشته الأمرُ فيهما على كثير من الناس • أولاها ما يظنه الناس من تعارض الحكم الديني مع حق الشعب في التشريع • وثانيها ما يظنه بعضهم من أن الخلافة كالبابوية ، تنطوي على الاستبداد الديني •

أما المسألة الأولى فقد بسط الكلام فيها في الفقرة ٣٢ عند كلامه عن (الاشتراع الإسلامي والخلافة) • وقد فرّق المؤلف بين الدين الذي هو أصول العقائد ، والحكم

والآدابُ التى هى قواعد الدين المتعلقة بصلاح المعاش والسَّعاد ، وبين الشرع الذى هو خاص بالأحكام القضائية أو العملية دون أصول العقائد • وقال إن ذلك هو الذى دعا الفقهاء إلى تقسيم الفقه قسمين : عبادات ومعاملات • وخلص إلى أن الدين « هو ما شرع ليُتقرب به إلى الله تعالى من العبادات ، وترك الفواحش والمنكرات ، ومراعاة الحق والعدل فى المعاملات ، تزكية للنفس ، وإعداداً لها للحياة الآخرة وأما ما عدا ذلك من نظام الإدارة والقضاء والسياسة والجباية وتدير الحرب ، مما لا دخل للتعب والزلفى إلى الله فى فروعه ، بعد حسن النية فيه ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى زمنه مشترعا فيه باجتهاده ، مأمورا من الله بمشاورة الأمة فيه ، ولا سيما أولى الأمر من أفرادها ، الذين هم محل ثقتها فى مصالحها العامة ، ويمثلو إرادتها من العلماء والزعماء والقواد • وهو كذلك مفوض من بعده إلى هؤلاء أنفسهم • ويخلفه لتمثيل الوحدة من يختارونه إماماً لهم وخليفة له » •

« ومن آثار الخلفاء الراشدين المهديين ما كانوا يستشيرون فيه أهل العلم والرأى من أمور الإدارة والقضاء والحرب أيضا ، وما وضعوه من الدواوين والخراج وغير ذلك مما لم يرد به نص فى الكتاب والسنة فكل هذا مما يسمّى فى عرف علم الحقوق والقانون تشريعا » •

« فثبت بهذا أن للإسلام اشتراعا مأذونا به من الله تعالى • وأنه مفوض إلى الأمة ، يُقره أهل العلم والرأى والزعامة فيها بالشورى بينهم ، وأن السلطة فى الحقيقة للأمة • فإذا أمكن استفتاؤها فى أمرٍ وأجمعت عليه فلا مندوحة منه • وليس للخليفة - ودع من دونه من الحكام - أن ينقض إجماعها ولا أن يخالفه ، ولا أن يخالف نوابها وممثلها من أهل الحل والعقد أيضا وأما إذا اختلفوا فالواجب رد ما تنازعوا فيه إلى الأصلين الأساسيين ، وهما الكتاب والسنة ، والعمل بما يؤيده الدليل منها أو من أحدهما » •

وبين المؤلف أن هنا وجه الخلاف بين الاسلام وبين التشريع الأوروبى الحديث

الذى يأخذ برأى الأكثر عند اختلاف الرأى ، ويبين فضل النظام الإسلامى وحكمته ، إذ أن « النزاع بين طرفى الأمة يزول بتحكيم الكتاب والسنة فيه ، وتطيب نفوس جميع نواب الأمة بما يظهر رجحانه بالدليل ، ولا يبقى للأضغان والنزاع مجال بينهم » •

أما الشبهة الثانية التى جلاها المؤلف فيما جلا من شبهات ، فقد بسط القول فيها فى الفقرة ٣٩ عند كلامه عن (الخلافة والبابوية أو الرياسة الروحية) • وقد بين المؤلف أن الإسلام قد أعتق الناس من رق العبودية لغير الله سبحانه وتعالى • وأن من أصول الشريعة أن نعامل الناس بحسب أعمالهم الظاهرة وتكفل أمر القلوب والسرائر إلى الله • ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعامل المنافقين معاملة المؤمنين ، مع علمه ببعضهم • ويصل المؤلف من ذلك إلى « أن الخليفة فى الإسلام ليس إلا رئيس الحكومة المقيدة ، لا سيطرة ولا رقابة له على أرواح الناس وقلوبهم • وإنما هو منفذ للشرع • وطاعته محصورة فى ذلك • فهى طاعة للشرع لا له نفسه ••• ولكن الأعاجم أفسدوا فى أمر الخلافة والإمامة بما دست الباطنية فى الشيعة من تعاليم الإمام المعصوم ، وبما أفرط الفرس والترك ومن تبعهم فى الغلو بإطراء الخلفاء ، حتى فتحوا لهم باب الاستعباد ، وقهروا الأمة على الخنوع والانقياد » •

وينقل المؤلف عن كتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) لمحمد عبده ما يؤيد وجهة نظره ، وما يتضح معه أن « لكل مسلم أن يفهم عن كتاب الله من كتاب الله ، وعن رسوله من كلام رسوله ، بدون توسيط أحد من سلف ولا من خلف • وإنما يجب عليه قبل ذلك أن يحصل من وسائله ما يؤهله للفهم .. فإن لم تسمح له حاله بالوصول إلى ما يُعده لفهم الصواب من السنة والكتاب ، فليس عليه إلا أن يسأل العارفين بها ... فالخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم ، ولا هو مهبط الوحي ، ولا من

حقه الاستثثار بتفسير الكتاب والسنة • نعم ، شرط فيه أن يكون مجتهدا ، أى أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها مما تقدم ذكره بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة ما يحتاج إليه من الأحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفساد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذى يطالبه به الدين للأمة » •

على هذا النحو مضى رشيد رضا فى النقل عن كتاب محمد عبده ، بما يصور الفرق بين الخليفة عند المسلمين ، الذى هو حاكم مدنى من جميع الوجوه ، وبين البابا عند المسيحيين ، الذى ينفرد بتلقى الشريعة ويستأثر بالتشريع • وبذلك أوضح رشيد رضا الفرق بين الخلافة الإسلامية وبين الشيوقراطية • كما أوضح أن خلط الباحثين والكتاب من الغربيين بينها إنما هو ناتج من الخطأ فى تصور نظم الحكم الإسلامى •

وإلى لقاء تال إن شاء الله ، فى كتاب آخر ظهر فى هذه الفترة ، وهو كتاب (النكير على منكرى النعمة ، من الدين والخلافة والأمة) لمصطفى صبرى •

والسلام عليكم ورحمة الله •





الخلافة الإسلامية :

النكير على منكرى النعمة لمصطفى صبرى

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ••

الكتاب الذى أريد أن أنقل عنه بعض ماجاء فيه عن الدين والدولة بين النظام الإسلامى والنظم الغربية هو كتاب (النكير على منكرى النعمة ، من الدين والخلافة والأمة) • ومؤلفه هو مصطفى صبرى شيخ الإسلام فى تركيا فى خلافة وحيد الدين • وقد قرّعه حين دخل الكماليون الأستانة • فرأوا إلى اليونان حيث أصدر صحيفة معارضة للكماليين ، تنبه المسلمين إلى خطرهم على الدين • ثم تنقل بين مصر والشام والحجاز ، واستقر أخيرا فى مصر • وبها توفى سنة ١٣٧٤ (١٩٥٤ م) • وقد ظهر كتابه الذى نعرض بعض مقتطفات منه بعد كتاب رشيد رضا بثلاثة شهور • فقد ذكر فى آخره تاريخ الفراغ منه ، وهو : ١٥ شعبان ١٣٤٢ (الموافق ٢٠ مارس ١٩٢٤ م) وكان تأليفه أثناء اقامته فى الشام • وقد كتب مصطفى صبرى بعد ذلك عددا من الكتب صدرت له بعد استقراره فى مصر • كان أولها كتابه (مسألة ترجمة القرآن) صدر فى مائة وثلاثين صفحة سنة ١٣٥١ (١٩٣١ م) • وقد ناقش فيه حجج كل من الشيخ محمد مصطفى المراعى ومحمد فريد وجدى فى جواز ترجمة القرآن والتعبدها فى الصلاة • ثم ألف كتاب (موقف البشر تحت سلطان القدر) سنة ١٣٥٢ (١٩٣٢ م) وهو يرد فيه على ما زعمه بعض الزاعمين من أن تأخر المسلمين وتواكلهم يرجع إلى إيمانهم بعقيدة القضاء والقدر • وهو يقع فى ٢٨٠ صفحة • ثم أصدر بعد ذلك كتاب (قولى فى المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب) سنة ١٣٥٤ (١٩٣٤ م) وهو يقع فى ٨٥ صفحة من القطع الصغيرة • ثم طبع كتاب (القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) سنة ١٣٦١ (١٩٤٢ م) وهو يقع فى ٢١٥

صفحة • وقد رد فيه على الماديين الذين يشككون في وجود الله سبحانه وتعالى ، وعلى الذين ينكرون الغيب والنبوة والمعجزات ، وعلى من سرت فيهم عدوى العصر من علماء المسلمين الذين يذهبون إلى تأويل المعجزات بما يساير روح العصر • وكان آخر مظهر لمصطفى صبرى كتابه الكبير (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين) الذى طبعه سنة ١٣٦٩ (١٩٥٠ م) • وهو يقع فى أربعة مجلدات كبيرة ، يبلغ كل واحد منها نحو خمسمائة صفحة ، وفى هذا الكتاب خلاصة آراء المؤلف الفقهية والفلسفية والاجتماعية والسياسية •

وقد كان مصطفى صبرى مدفوعا فى كل ماكتبه بما استيقنته نفسه من أن الغرب يجتدُ فى محو الإسلام ، وأن نجاح مكيدته فى تركيا نذير بانتشارها • فهو يجاهد بكل مايسعه من جهد لمنع المسلمين من الانحدار إلى نفس المصير الذى صار إليه الترك على يد الكمالين • وقد رأى مصطفى صبرى فى وضوح وثبت أن أهم ما يتعرض له الفكر الإسلامى الحديث من أخطار هو خطر الغزو الثقافى ، الذى يهدد الشخصية الإسلامية بالاضمحلال ، نتيجة لما وفر فى نفوس المسلمين من إجلالٍ للثقافة الغربية وإسراف فى الاعتماد عليها والنقل منها • وقد دعاه ذلك إلى أن يتعقب الفكر الإسلامى الحديث بالنقد • واستمد مادته مما تخرج المطابع من كتب ومن صحف • وبذلك صار لكتبه - إلى جانب قيمتها الفكرية الإسلامية - قيمة تاريخية ، إذ أصبحت سجلا صادقا للحياة الفكرية المعاصرة • وزاد فى قيمتها من هذه الناحية أن المؤلف قد جرى فى كل كتبه على نقل النصوص التى يعارضها كاملة قبل أن يتولى الرد عليها •

ونعود ، بعد التعريف بمصطفى صبرى ، إلى كتابه (النكير على منكرى النعمة) الذى نريد أن ننقل عنه بعض ما جاء فيه عن الدين والدولة بين النظام الإسلامى والنظم الغربية •

تكلم المؤلف عن فساد دين الكماليين • وقدم نماذج مما كتب بعض كتابهم ، مستشهدا بها على استخفافهم بالقرآن وبالتعاليم الإسلامية ومجاهرتهم بأنها مما لا يمكن تطبيقه في القرن العشرين • وضرب أمثلة لما عبثوا فيه بالشرع ، حين سنّوا من القوانين ما يخالفه • مثل إباحتهم اختلاط الرجال بالنساء ، وتحديد حد أدنى لسن الزواج في البنين والبنات ، وتحريم ما أحل الله من تعدد الزوجات ، يعد أن حرفوا كلام الله عن وجهه • وبين المؤلف في كلامه عن عصبية الكماليين لجنسهم أنهم قد ذهبوا في التعصب لطورانيتهم إلى حد العداوة للإسلام ومهاجمته باعتباره ديناً عربياً ، وإحيائهم لعقائد الترك الوثنية السابقة على إسلامهم ، كالوثن التركي القديم (بوزقورت) أو الذنب الأبيض ، الذي صوروه على طابع البريد ، ووضعوا له الأناشيد ، وألزموا الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب ، وكأنهم يحملون تحية الذنب محل الصلاة ، مبالغة منهم في إقامة الشعور الجنسي مقام الشعور الإسلامى » •

وربط المؤلف بين فساد دين الكماليين وبين فصلهم الدين عن الدولة ، فردّ تجريد الخلافة من السلطة إلى ارتداد الحكومة التركية وانتزاعها من لباسها الدينى • ذلك لأن الحكومة هي القوة العاملة ، والخلافة هي اتصاف تلك الحكومة بصفة دينية • فأخرج الحكومة عن الخلافة إخراج لها عن الدين « فالكماليون قد نقلوا ما أحبوه من السلطة إلى من أحبوه • وتركوا ما كرهوه من الخلافة فيمن كرهوه » وتركوا الخليفة في الأستانة ، مع نقلهم العاصمة إلى أنقرة ، بزعم أنها أحسن موقعا ، وكأنه لا يلزم في مقر الخلافة من العصمة مثل ما يلزم في مقر الحكومة •

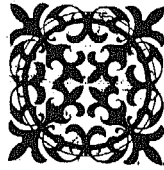
وكان من أحسن ما وفق المؤلف في تجليله وبيان وجه الحق فيه شبهتان يشيرهما المتفرنجون • تتعلق إحداها بالأحكام الشرعية ، والأخرى بعلماء الدين • فهم يقولون في الأولى : كيف يمكن أن تكون الحكومة حرة ومستقلة إذا قيدت نفسها

بالدين ؟ وقد كان رد المؤلف على ذلك : إننا إذا اعتقدنا أن دين الإسلام نعمة للمسلمين وسعادة لهم في الدنيا والآخرة ، فلا ينافي حريتهم واستقلالهم كون حكومتهم ممنوعة من التخطي إلى ما وراء حدود الدين • ثم بين أن المقصود بالحرية هو حرية الأمم تجاه الحكومات ، لا حرية الحكومات في القيام بأمور الأمة • ولهذا تقيد الشعوب الحرة حكوماتها بالقوانين ، وتلتزمها بالتمسك بها ، وتمنعها من الترحيح عنها أو التلاعب بها • وكما يتسنى للحكومة المستبدة التلاعب بالقوانين عن طريق تأويلها بما يناسب شهواتها ، فكذلك يتسنى لها ذلك بتبديلها وتغييرها • « ولا يوجد عظيم فرق بين تخطي القوانين بإهملها وبين تخطيها بإبدالها » • وموافقة النواب على تبديل القوانين ليست دليلاً على رضا الأمة « ولهذا يحتاج في بعض البلاد إلى توثيق القوانين الصادرة من البرلمان بعرضها على الأمة • مع أن الأمة نفسها تحتاج إلى رقيب من نفسها ووسائل أولية فكرية أدبية ارتكزت فيها ، تقيها الخطأ والزلل في اجتهادها الذي تبني عليه قوانينها • • فيلزم أن يكون لسن القوانين حدود يوقف عندها • وبعبارة أخرى يلزم أن توجد قوانين أساسية لا يتخطاها نظام القوانين ، ولا يسوغ لهم تبديلها • • وتلك القوانين الأساسية أسلمها ما كانت سماوية ، لئلا أن تغييرها ليس في وسع البشر • فهي أخرى أن تكون تحم الاستناد ، وتتخذ آخر مفرع لإصلاح الفساد الناشئ من أنفسهم ، ومنهم نظام القوانين » •

أما الشبهة الثانية التي يكثر المتفرنجون من ترديدها ، فهي قولهم في الدعوة إلى عدم الاعتداد بعلماء الدين : لا اختصاص لواحد من صفوف المسلمين في العلم بالدين ، ولا امتياز ، ولا رهبانية في الإسلام • وقد رد المؤلف على ذلك بقوله : « ولكن هناك طائفة قال الله تعالى في شأنهم (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) • حتى استثنى سبحانه وتعالى تلك الطائفة من فريضة الجهاد » • ولذلك فالمؤلف يدعو علماء الدين للاشتغال بالسياسة ، إذ يقول في موضع آخر : « والذين جردوا الدين في ديارنا عن

السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين ، بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم • ومراؤهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم ، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة • فيقبلون أيديهم ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم ، ثم يفعلون ما يشاءون بدين الناس ودنياهم ، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمرٌ بمعروف أو نهى عن منكر ، إلا ما يُعَدُّ من فضول اللسان ، أو يكمن في القلب ، وذلك أضعف الإيمان • فالعلماء المعتزلون عن السياسة ، كأنهم تواطئوا مع كل الساسة ، صالحهم وظالمهم ، على أن يكون الأمر بأيديهم ، ويكون لهم منهم رواتب الإنعام ومراتب الاحترام ، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسى » •

ولم يكد المؤلف ينتهى من طبع كتابه حتى وردت الأنباء بالغاء مصطفى كمال للخلافة • فالحق المؤلف بالكتاب فصلا قصيرا ختمه به ، وجعل عنوانه (قطعتُ جَهِيْزَةَ قَوْلِ كُلِّ خَطِيْبٍ) •
والسلام عليكم ورحمة الله ،





الجامعة الإسلامية والجامعة القومية

كان مما استتبعه الخلاف في تصور نظام الحكم بين الإسلام وبين الحضارة الغربية المعاصرة خلاف شغل الشعراء والأدباء والمفكرين حول تصور الأمة والدولة • وقثّل ذلك في صدر هذا القرن الميلادي في الصراع بين الجامعة الإسلامية والجامعة القومية أو الوطنية • والجامعة الإسلامية هي الرابطة أو الصلة التي تجمع المسلمين • فالمسلمون على اختلاف أجناسهم وألوانهم أمة واحدة من دون الناس • وهذا هو التصور التقليدي الذي تعارف عليه المسلمون منذ ظهور الإسلام وتوارثوه خلفا عن سلف • أما الجامعة القومية أو الوطنية فهي تصوّر طارئ نقله المسلمون فيما نقلوا من نظم الغرب ، الذي برزت فيه هذه الظاهرة في القرن التاسع عشر الميلادي ، وكانت حرب أمريكا في سبيل استقلالها والثورة الفرنسية من بعدها في مختتم القرن الثامن عشر هي نقطة البداية لهذه الحركة ، التي اتخذت شكلا حرييا عنيفا من بعد ، ترتب عليه تفتيت دولتين كبيرتين ، هما الإمبراطورية النمساوية والدولة العثمانية من ناحية ، بانبعث القوميات الجديدة عند الإغريق والتشيك والسلوفاك والرومانيين وبولندا • كما ترتب عليه من ناحية أخرى ائتلاف إمارات متفرقة لتكوين دولة واحدة كبرى ، كما حدث في إيطاليا وألمانيا • في ظل هذا التصور القومي الجديد نشأت في أوروبا مجموعات من الكتل البشرية ، تقوم كل كتلة منها على أساس الاعتقاد بأنهم شعب واحد تجمعهم رابطة الدم والعصبية الجنسية • وتعصبت كل مجموعة من هذه المجموعات لرابطة الوطن والقومية ، واندفعت في حماس عاطفي بالغ لتحقيقه ، واستنقاذه من الدائرة الكبيرة التي ينطوي تحتها ، أوجع شمله في وحدة كبرى تضم ما تفرق من أشتاته • وكان الكتاب والشعراء والصحف والدعاة والباحثون في

الأجناس يغذون فكرة القومية الجديدة ، التي تستند إلى ما غرسه الثورة الفرنسية في الناس من تعاليم الديمقراطية ، وما نشرته من الدعوة إلى الحرية ، التي أيقظت الشعور القومي وروح التمرد في الشعوب ، حتى أصبح التغنى بمجد الوطن والتضحية في سبيله هو الأغنية (الرومنسية) المحببة ، التي ترددها الجماعات ويطربون بها ترنمهم بالتراتيل الكنسية .^٥ وارتفعت قيمة التضحية بالجهد وبالمال وبالروح في مجد هذا الوطن الذي اتجهت إليه عواطف الجماهير ، كأنما هو معبود جديد هداهم إليه نبي جديد .

وكان السلطان عبد الحميد في فترة حكمه الطويل الذي بلغ ثلث قرن قد تنبه إلى ما يحيط الدولة العثمانية من مخاطر ، وفتح عينيه على الدول الأوروبية التي تربص بها وتنتظر الفرصة السانحة للانقضاض عليها واقتسام أراضيها . ورأى أمام هذه الأخطار المحدقة بالدولة أن السبيل الوحيد لجمع شملها وتوحيد صفوفها هو إحياء الرابطة الدينية . فأتجه إلى تقوية « الجامعة الإسلامية » ونشر شعاره المعروف (يا مسلمي العالم . اتحدوا) .

وكان الشعور القومي الذي ظهر في القسم الأوربي من الدولة العثمانية ، ومن ورائه تحريض روسيا وإنجلترا على وجه الخصوص قد اتخذ من جهة أخرى شكلا دينيا . ولم يلبث أن تحول إلى صدام عسكري ، يكاد يكون في طبيعته امتدادا للحروب الصليبية . فكانت روسيا القيصرية لا تنقطع عن إثارة الفتنة في دول البلقان وتأليبهم على الحكم التركي ومدهم بالسلاح بدعوى التخلص من حكم المسلمين . وكانت الصحف والمجلات في بلاد المسلمين والنصارى على السواء تفيض بأنباء المجازر الوحشية الرهيبة في البلقان ، التي لم ينج من شرها أطفال المسلمين وفتياتهم ، والتي رد عليها السلطان عبد الحميد بمجازر أبشع منها في إخماد ثورة الأرمن . وكانت (العرائض) تنهال على الملكة فكتوريا طالبة إنقاذ المسيحيين من

مذابح المسلمين • وكان جلادستون زعيم حزب الأحرار بإنجلترا يلقي الخطب الرنانة ويؤلف الرسائل المطولة ، ناسبا إلى تركيا اضطهاد المسيحيين ، ومشيرا إلى السلطان عبد الحميد باسم (الشيطان) و (عدو المسيح) • وكان المستر بارنج الذى عُرف فيما بعد باسم اللورد كرومر بعد منحه لقب (لورد) ، سكرتير السفارة الإنجليزية فى الآستانة ، يكتب تقارير مطولة عن المسألة البلقانية ، يقترح فيها أن يكون حكام هذه الأقاليم مسيحيين •

كل هذه الأحداث قد ساعدت على تنمية الشعور بالرابطة الإسلامية ، والتجمع حول شعار (الجامعة الإسلامية) الذى نادى بها تركيا فى عهد عبد الحميد ، بوصفها أقوى هذه الشعوب وأقدرها على قيادة المعركة ضد العدو المشترك •

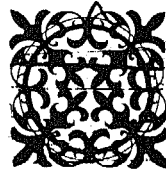
ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة • فقد كان هناك وجه آخر للصورة يتهدد للظهور على مسرح الأحداث • كانت هناك حركة بين الترك تتعصب للجنس الطورانى الذى ينتمى إليه أجداد الترك الأولون • وكانت هذه الحركة الطورانية تتخذ شكل خلايا سرية ، وتتسلل إلى صفوف الجيش بين عناصر مريبة ينتمى أكثرها إلى طائفة من اليهود يعرفون « بالدوغة » ، كانوا يتظاهرون بالإسلام ويتسمون بأسماء المسلمين ولكنهم يعيشون فى مساكنهم وفى معاملاتهم وتزواجهم فى مجتمع مغلق بإقليم (سالنيك) • وكانت هذه الخلايا السرية تعرف باسم (تركيا الفتاة) أو الـ (جون تورك) كما كان يحلو لكثير من المنتمين إليها ، المتأثرين فى تفكيرهم بالشورة الفرنسية ، أن يسموها • وهى التى عرفت فيما بعد ، حين ظهرت إلى الوجود فى شكل حزب سياسى ، بعد نجاحهم فى إسقاط السلطان عبد الحميد ، باسم (حزب الاتحاد والترقى) أو (الاتحاديين) على سبيل الاختصار • وكانت هذه الخلايا السرية التى عرفت باسم (تركيا الفتاة) أو الـ (جون تورك) تعقد اجتماعاتها السرية فى (المحافل الماسونية) التى كان ينتمى إليها أكثر أعضائها ، والتى كانت تتمتع بحصانة دولية تشبه حصانة السفارات والقنصليات الأجنبية • وصلة الماسونية

بالصهيونية العالمية ظاهرة مشهورة لا تحتاج للتنبيه إليها • وكانت هذه الجماعة ذات ميول إلحادية ظاهرة ، تبدو فيما كان ينشره كتّابها ومفكروها في الصحف ، من آراء تستخف بالدين وتدعو إلى التحرر من قيوده ، وإلى قيام النهضة على أساس عِرْقِيّ عصبى يعتمد على سيادة العنصر التركي وتترك العناصر الأخرى التى تضمها الدولة ، وأبرزها العناصر العربية •

وفى مقابل هذه الحركة العنصرية التركية نشأت حركات قومية مماثلة بين العرب تمثلت فى حركتين • إحداهما تمثل الجناح الشرقى للعرب فى بلاد الشام والعراق ، وهى حركة تدعو إلى (الجامعة العربية) • والأخرى فى مصر تدعو إلى جامعة مصرية ضيقة لا تتجاوز حدودها • وكانت الحركتان تنتشران بين أصحاب الثقافات الغربية بنوع خاص ، وبين أصحاب المصالح الخاصة الذين يجدون تشجيعا من الإنجليز فى مصر ، ومن بعض السفارات الأجنبية فى الشام • وبذلك أصبح الصراع يدور بين ثلاث روابط أو جامعات : الجامعة الإسلامية ، والجامعة العربية ، والجامعة المصرية •

وإلى لقاء تال إن شاء الله فى مزيد من البيان حول هذه الجامعات •

والسلام عليكم ورحمة الله •





رفض الجامعة القومية

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ..

دار صراع فكري طويل منذ أوائل هذا القرن الميلادي حول الرابطة الجديدة الوافدة التي تسمى بالوطنية ، والتي كانت تسمى في مصر بالجامعة المصرية ، وكانت تسمى في بلاد الشام والعراق بالجامعة العربية ، ثم تحولت بعد انفراط عقد الدولة العثمانية إلى وطنيات إقليمية • هل هي بديل من الجامعة الإسلامية ؟ أم أنها داخلة فيها تنطوي تحتها ولا تتعارض معها ؟

انقسم المفكرون والأدباء في هذا الشأن وتوزعتهم أربعة مذاهب • تجاهل فريق منهم هذه الفكرة الوافدة واعتبروها غريبة عن أرضنا لا مكان لها فيها • فكانوا لا يتحدثون حين يتحدثون عن وجوه المفاصد وما يقترحون لإصلاحها إلا عن الأمة الإسلامية وجماعة المسلمين • واعتبرها قوم آخرون أمرا واقعا في التنظيم الدولي الحديث لا يصح تجاهلها ولا يجدي إنكاره ، فتكلموا عنها مبينين ماهيتها دون أن يعرضوا لتبيين مكانها من الجامعة الإسلامية أو يحددوا صلتها بها • وتعصب لها فريق ثالث وأفرطوا في التعصب حتى أنكروا الجامعة الإسلامية واعتبروها وهماً لا يمكن أن تقوم عليه رابطة سياسية • وظهر آخر الأمر فريق رابع يدعو إلى الجامعة الوطنية ولا يرى تعاضدا بينها وبين الجامعة الإسلامية •

أما الفريق الأول الذي يتجاهل هذه الجامعة الوطنية الوافدة فكان يضم جماعة الناس الذين لا يعرفون لهم رابطة غير رابطة الإسلام ، وكثرة كبيرة من علماء الدين الذين ينفرون من كل المستحدثات التي وفدت مع أصحاب الثقافات الغربية • وهذا الفريق هو الذي يتكلم بلسانه رشيد رضا حين عرّض في كتابه (تاريخ الأستاذ

الإمام) للخديوى عباس ، وأفاض فى ذكر الخصومة التى كانت بينه وبين محمد عبده ، ثم ختم الحديث بذكر شىء من محاسنه ، حتى لا يبدو شديد الانحياز لمحمد عبده إلى درجة الانحراف عن العدل ، فقال فيه « أولُ ما عرف الناس من محاسنه ما يسمّى فى عُرف هذا العصر بالوطنية » . وتأمل قوله « ما يُسمّى فى عُرف هذا العصر » . وشبيه بذلك ما قاله عبدالعزيز جاويش حين سأله بعضُ الناس عن الحركات الوطنية ومبتدأ خبرها وسرُ سياستها ، فأجابهم فى مقال له نشر فى صحيفة (العَلَم) سنة ١٩١٠ م ، « إن الشعور بالوطنية اصطلاح إفرنكى انتقلت بذوره إلى الشرق من مطاوى العلوم العصرية وأصول المدنية الحديثة التى اهتدى إليها أهل الغرب » . وهذا الفريق لا يتكلم حين يتكلم إلا عن الجامعة الإسلامية . وأبرز ما ظهر فيه من كتابات هو ما ضمّته صحيفة (العروة الوثقى) من مقالات فى الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) . وهى المقالات التى اشترك فى تحرير أكثرها جمال الدين المعروف بالأفغانى ومحمد عبده .

ولا نريد أن نعرض هنا للهدف الحقيقى والغرض الخفى من هذه المقالات . فهذا موضوع آخر وحديث طويل يخرج بنا عن هذا السياق . وأياً ما كان الأمر فقد كانت هذه المقالات من أبرز ما ظهر فى هذه الفترة المبكرة التى يفصلنا عنها قرن كامل من الزمان ، فى الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) ومهاجمة التقليد الأعمى للحضارة الغربية .

يهاجم أحد هذه المقالات الذين يذهبون إلى الإصلاح عن طريق الاستكثار من إنشاء المدارس على الطريقة الأوروبية ، فيقول :

« شيد العثمانيون والمصريون عددا من المدارس على النمط الجديد . وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب وكل ما يسمونه تمدنا . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا

لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ ... نعم • ربما يوجد بينهم أفراد يتفقهون بالفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة بتراء ، لا تُعرَف غايتها ولا تُعلم بدايتها • وسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بِسَمَةِ أخرى على حسب ما يختارون • ووقفوا عند هذا الحد • ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل إليهم من العلم ، فقلّبوا أوضاع المباني والمساكن ، وبدّلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجدود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدّوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهاة ، ففسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره •

... وهذا جدُّع لآئف الأمة ، يشوه وجهها ويحط بشأنها • وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وُضِعَتْ فيها على غير أساسها ، وفجأتهم قبل أوانها • «

وجاء في مقال آخر من مقالات (العروة الوثقى) تحت عنوان (التعصب) :
« تُغثِّع جماعة من متزندقة هذه الأوقات في مفاسد التعصب الديني • وزعموا أن حميّة أهل الدين لما يؤخذ به إخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع ما يُلمُّ بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذي يصدّهم عن السير إلى كمال المدنية ، ويحببهم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمى بهم في ظلمات الجهل ، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم • ومن رأى أولئك المُتَغَنِّغِينَ أن لا سبيل لدرء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطان العقائد • وكثيرا ما يُرجفون بأهل الدين الإسلامي ، ويخوضون في نسبة مذامّ التعصب إليهم » • ثم يبين أن الدين أعظم مُقَوِّمٍ للخلق ، وأن الغلو الذي يطرأ على العصبية الدينية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الدين ، كالغلو الذي يطرأ على العصبية الجنسية فيدعو إلى إذلال المخالفين في الجنس واستعبادهم • ويبين أن الدعوة إلى التعصب في الجنس الذي يسمونه (الوطنية) إنما يروجه الإفرنج الذين

يريدون أن ينقضوا بناء الملة الإسلامية ، ويفرقوا بين شعوبها ، ليسهل عليهم استعمارها ، وأن المغفلين من المسلمين الذين تبعوا هذه الدعوة الخبيثة قد هدموا العصبية الدينية ، ثم لم يستطيعوا أن يقيموا مكانها العصبية الجنسية التي يسمونها (الوطنية) •

أما الفريق الثانى الذى اعتبر (الوطنية) أمرا واقعا لم يرفضه ولم يتحمس له ، واكتفى ببيان ماهيته ورسم حدوده وبيان حقوقه وواجباته فدخل فيه رفاة الطهطاوى ومحمد عبده فى الفترة السابقة على اشتراكه فى تحرير صحيفة (العروة الوثقى) •

فالطهطاوى يتكلم فى مقدمة كتابه (مناهج الألباب المصرية فى مباحج الآداب العصرية) عن حب الوطن والتعلق به ووجوب الاهتمام (بالمنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى وتحسين الحال وتنعيم البال على عموم الجمعية) ويورد كثيرا من الأقوال المأثورة فى حب الوطن ، بين حديث شريف ، أو كلام يعزى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو حكمة مشهورة أو شعر • ويبين أن الوطن جامعة تجمع ساكنيه على اختلاف الأديان حين يقول : (فجميع ما يجب على المسلم للمسلم يجب على أعضاء الوطن ، من حقوق بعضهم على بعض ، لما بينهم من الأخوة الوطنية فضلا عن الأخوة الدينية • فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد ، التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه ، فيما يخص شرف الوطن وغناؤه وثروته ، لأن الغنى إنما يتحصل من انتظام المعاملات وتحصيل المنافع العمومية • وهى تكون بين أهل الوطن الواحد على السوية ، لانتفاعهم جميعا بمزية النخوة الوطنية » •

وشبيه بكلام رفاة الطهطاوى ماكتبه محمد عبده فى الفترة السابقة على اشتراكه فى تحرير (العروة الوثقى) ، من مثل مقاله الذى نشره فى صحيفة (الوقائع المصرية) سنة ١٨٨١ م ، والذى تحدث فيه عن الوطن وعن وجوب التفانى فى حبه والدود عنه ،

فقال فيما قال : « تقرر مما سلف أن لابد لذوى الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها ويجمعون عليها ، اجتماع دقائق الرمل حجرا صلدا • وأن خير أوجه الوحدة الوطن ، لامتناع النزاع والخلاف فيه • » وبعد كلام في تعريف الوطن عند مفكري الغرب قديمهم وحديثهم ، وما للناس من حقوق فيه وما عليهم من واجبات ، ختم مقاله بقوله : « فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه • فهو سكنه الذى يأكل فيه هنيئا ويشرب فيه مريئا ويبيت فى الأهل آمنا • وهو مقامه الذى ينتسب إليه ولا يجد فى النسبة عارا ولا يخاف تعييرا • وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التى حصلت له ، بما أوضحناه من دخوله فى دور الحياة السياسية » •

والى لقاء تال إن شاء الله فى تتمة هذا الحديث •

والسلام عليكم ورحمة الله •





رفض الجامعة الاسلامية

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..
إلى جانب الفريق الذى كان يتجاهل القومية الجديدة ولا يتكلم حين يتكلم إلا
عن الجامعة الإسلامية ، والفريق الذى يعتبر الجامعة القومية أمرا واقعا فى التنظيم
الدولى الحديث لا يصح تجاهله ، وُجد فريق ثالث يغلو فى التمسك للجامعة القومية
الجديدة حتى يدفعه حماسه إلى إنكار وجود الجامعة الإسلامية بوصفها قوة فاعلة فى
التنظيم الدولى • ولا يرى الوطنية إلا جامعة تقوم على المصلحة المشتركة • فالوطن
عندهم كما يقول كاتبهم الأول أحمد لطفى السيد فى إحدى افتتاحيات صحيفة
(الجريدة) التى كان يرأس تحريرها « هو مركز المصلحة العامة للجماعة متضامنين
يشعرون بحاجتهم إلى التعاون فى دفع المضار وجلب المنافع » • ويبدو هذا المفهوم
نفسه للوطن والوطنية عند عبد الحميد الزهراوى ، أحد أفراد الرعيل الأول من دعاة
القومية العربية الذين أعدمهم جمال باشا فى الشام سنة ١٩١٦ م • وذلك حيث يقول
فى إحدى مقالاته فى صحيفة (الجريدة) حين كان لاجئا لمصر :

« إن فكرة الجامعة الإسلامية قد تجول أحيانا بخواطر بعض الناس الذين لا
يزالون بعيدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر فى الأمور العامة بشئ من التدقيق •
ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخواطر ، تظهر وتختفى تبعا للحوادث .. أما كون
الجامعة الإسلامية موجودة وجودا حقيقيا ، أو أنها مقصد من المقاصد التى يسعى
المسلمون لتحقيقها فذلك لا دليل عليه مطلقا • كما أنه لو حُوِّلَ إيجادها لاستحال
ذلك بالمرّة على طلابه • فقد علّمنا التاريخ وطبائع البشر أنه لا شئ يجمع الناس إلا

المنافع : فإذا تناقضت بين قبيلتين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة في الجنسية أو وحدة في الدين » .

وأوضح منه في إنكار (الجامعة الإسلامية) بوصفها مؤسسة سياسية ذات فاعلية ، مما يبدو فيه الغلو الجامح ، قوله في مقال آخر نشره في الصحيفة نفسها سنة ١٩٠٧ م : « ما الجامعة الإسلامية إلا اتفاق في كلمة واحدة . وهى أن القرآن كتاب الله ، جاء به محمد رسول الله . ولكن المطلع على تاريخ المتفقين هذا الاتفاق يعلم أنه لم يدفع عنهم الاختلاف الذى لا اتفاق معه بعد . فمنذ اختلف المسلمون ثلثت جامعتهم ، ولم يتفقوا اتفاقا سياسيا بعد عهد عمر ، ولا اتفاقا دينيا بعد عهد على . فما هى جامعة قوم مختلفين منذ ثلاثة عشر قرنا اختلافا سياسيا واختلافا دينيا ، يقتل بعضهم بعضا ، ويستعين بعضهم على بعض بأهل الملل المخالفة من الأساس ؟ ما هى جامعة قوم لم يخل يوم من أيامهم من قتال فئة منهم فئة أخرى منذ مقتل خليفتهم الثانى إلى يومنا هذا ؟.. ما هى جامعة قوم يُسرُّ ملوكهم المختلفون بذهاب ممالك ملوك آخرين منهم ؟ ... ما هى جامعة قوم حدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبيا شرقيا (هولاء) اكتسح بلادهم وهم فى عزهم ، فلم تتضام أيديهم على مقاتلته ، وكانت لا تزال قوية على قتال بعضهم بعضا ؟ .. وحدثنا التاريخ من حديثهم أن أجنبيا غربيا (الصليبيين) هاجم بلادهم ، فلم يجتمعوا كلهم على طرده ، حتى حركت الهمّة طائفة منهم قوّيت وحدّاها على صده ؟ » .

من الواضح أن هذا الفريق من المفكرين لا يقيم للدين وزنا . بل لا يبدو أنهم يصدرون فى تفكيرهم عن إيمان مستقر فى ضباطهم يدعوهم إلى تدبر عاقبة أمرهم فيما وراء الموت ، بحيث يكون ذلك موجها لسلوكهم أو مؤثرا فى تفكيرهم . فهم يدعون إلى توفير أسباب المتعة فى هذه الدنيا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التفكير فيما وراءها . بل إنهم لا يتعمقون التفكير فيما ينفعهم فى هذه الدنيا . فالمفروض أن المسلمين حين يجتمعون على رابطة الإسلام يتعاونون فيما فيه صالحهم ، ويتبادلون

المنافع بما يحقق الخير العام لجماعتهم • وقد أثبت التاريخ المعاصر أنهم قادرون على ذلك ، وأن هذا التعاون يمكن أن يكون قوة مؤثرة في مجال السياسة الدولية • وقد تنبه لذلك باحثو الغرب أنفسهم فحذروا منه وخططوا لتفاديه • وهذا هو جب H.R.Gibb يشير في مقدمة كتاب (إلى أين يتجه الإسلام؟ Whither Islam) إلى وحدة الحضارة الإسلامية التي تجعل من العالم الإسلامي كتلة خطيرة مترامية الأطراف تحيط بأوروبا إحاطة محكمة ، وتهدد بعزلها على العالم ، ويقدم مختلف الخطط لتفتيت هذه الوحدة الحضارية •

وشبيه بما ذهب إليه لطفى السيد والزهاوى ما قاله أنيس الخورى المقدسى في استفتاء مجلة (الهلال) عن نهضة الأقطار العربية وتآلفها سنة ١٩٢٣ م ، فقد استبعد عنصر الدين ، ثم قال : « ولقائل أن يقول : إذا لم يكن الدين أعظم جامعة لسكان الأقطار العربية • فأية جامعة هناك تقوم مقامه ؟ أى قوة تستطيع أن تضم هذه الأقطار وتؤلف في كل منها وحدة قومية ؟ هناك قوة واحدة تستطيع ذلك هى اللغة • فاللغة العربية وآدابها وما إلى ذلك من تاريخها وتاريخ رجالها هى الأداة الوحيدة التى يمكن أن تجمع شتات العناصر في كل قطر عربى وتجعل منها أمة حية نامية » •

ومن أجل ذلك كان يحلو لهذا الفريق من الناس حين يتكلمون عن (الشعوب العربية) أن يطلقوا عليها (شعوب العربية) أى الشعوب التى تتكلم العربية ، لأنهم لا يعترفون بالعروبة صفة لهذه الشعوب لارتباطها فى أذهانهم بالإسلام ، ولكنهم يرونها صفة للغة التى هى عندهم جامعتهم الوحيدة • ولذلك اتخذت الدعوة إلى القومية العربية فى طور نشوئها الأول شكلا لغويا ، فظهر بين دعائها الأولين من المسيحيين بنوع خاص عددٌ كبير من الباحثين فى اللغة العربية والأدب العربى أمثال البستاني واليازجى والشندياق وأديب إسحق وشميل ونقاش وتقلا ومشاقة وزيدان ونمر وصرّوف • وكانت كثرة كبيرة من هؤلاء تناصر (القومية العربية) بدافع من عدائها

للجامعة الإسلامية ، ورغبتها في استبدال الحماية الفرنسية بالحكم العثماني . وفي ظل هذه الحركة شاعت الأسماء العربية بين من وُلدوا في عصر هذه الدعوة من المسيحيين ، بدلا من الأسماء المستعارة من الأوروبيين . وشاع بينهم الكلام في تمجيد كثير من أبطال المسلمين وخلفائهم ، بل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، بوصفهم من عباقرة العرب وزعمائهم الأفاضل ، وأُلف في ذلك شعر كثير وُكُتِبَ وقصص ، خُدِعَ بها كثير من سُدُج المسلمين ، واعتبروها مظهرا للتسامح . والواقع أنها كانت في حقيقة أمرها مظهرا للتصور القومى المتطرف الذى يتجاهل الجامعة الإسلامية ويسقطها من حساب المقومات التى تقوم بها الأمم . والمسلم الذى ينخدع بها ينسلخ من إسلامه . فالصفة الأولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رسول يصدع بما يوحى إليه . بل إن هذه هى صفته الوحيدة على سبيل الخصر والقصر بنص القرآن الكريم (وما محمد إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ) . فكلامه وعمله ليس مظهرا للعبقريّة فى الفن أو الفكر أو السلوك أو السياسة . ولو نزل كلامه وعمله هذه المنزلة لخضعنا للنقد وأصبحا يمثلان وجهة نظر تقبل النقاش وانتفت عنهما صفة الوحي والعصمة . وكذلك الشأن فى أصحابه المهديين . فليس الذى أتوه مما يعجز عنه الرجال من آثار عبقريتهم ، كما حلا لبعض كتاب المسلمين أن يسميه ، تقليدا لكتاب القومية العربية من المسيحيين والبراليين من المفكرين . ولكنه من آثار الإسلام الذى صنعهم على هذا المثال ، وهداهم إلى العمل على ذلك المنوال .

وإلى لقاء تال إن شاء الله ، أحدثكم فيه عن الفريق الرابع الذى لا يرى تعارضا بين الجامعة الإسلامية والجامعة القومية . والسلام عليكم ورحمة الله .





التوفيق بين الجامعة القومية والجامعة الإسلامية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ••

انقسم المفكرون والكتاب إزاء الجامعة القومية الوافدة أربعة أقسام ، وقد تحدثنا عن القسم الأول الذى يتجاهلها ولا يعرف له رابطة غير الجامعة الإسلامية • وتحدثنا عن الفريق الثانى الذى اعتبرها أمرا واقعا لا يجدى تجاهله ، فتكلموا فيها دون أن يتحمسوا لرفضها أو قبولها وإن كانوا قد رأوا أنها لا تخلو من بعض وجوه الخير • وتحدثنا كذلك عن الفريق الثالث الذى تحمس للجامعة الجديدة الوافدة تحمسا شديدا دفعه إلى إنكار الجامعة الإسلامية ومهاجمتها • وبقي أن أتكلم عن الفريق الرابع الذى لا يرى تعارضا بين الجامعة القومية والجامعة الإسلامية •

كان يمثل هذا الفريق فى مصر زعيم سياسى شاب مات مبكرا وقد جاوز الثلاثين من عمره بقليل اسمه مصطفى كامل ، وقف حياته القصيرة على الدعوة إلى حب مصر ومهاجمة الاحتلال الإنجليزى ، وكان كلامه عن مصر يشبه هيام العشاق المفتونين بمن يعشقون • يتجلى ذلك فى أشهر خطبه التى ألقاها فى الاسكندرية سنة ١٩٠٧ م ، والتى كان يحفظها كثير من شباب جيله كما يحفظون الشعر • وفيها يقول :

« بلادى ! بلادى ! لك حبى وفؤادى • لك حياتى ووجودى • لك دمي ونفسي •
لك عقلي ولساني • لك لُبي وجَناني • فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك
يا مصر » •

« يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها • هل يستطيع مصري أن

يتهور في حب مصر؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعوه إليها جلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها» .

« ألا أيها اللاتمون انظروها وتأملوها وطوفوها . واقرءوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطننا أعلى مقاما وأسمى شأنًا وأجل طبيعة وأجل آثارا وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟ إنى لولم أولد مصرياً لوددتُ أن أكون مصرياً » .

هذا الحديث العاطفى الذى يلتهب حرارة عن الوطن والوطنية هو مادعا شوقى لأن يقول فى مصطفى كامل حين رثاه :

يا صَبَّ مصرَ ويا شهيدَ غَرامِها هذا ثرى مِصرٍ فَنَمُ بأمان
وهو نموذج للأدب الوطنى الرومنسى الوافد على البلاد الإسلامية ، والذى تبرز معالمه

فى شعر أحمد محرم المعروف بنزعتة الإسلامية الصادقة حيث يقول :

ألى فى الهوى مالى وللأنم العذر أما يعلم اللّوام أن الهوى مِصرُ
فإن يسألوا ما حب مصر فإنه دمسى وفؤادى والجوانح والصدر
لنفسى وفائى إن وفيتُ بعهدىها وبى - لا بها - إن خنتُ حرمتها العذر
أخاف وأرجو ، وهى جهد مخافتى ومرمى رجائى ، لاخفاء ولا نُكر
هى العيش والموت المبعُض والغنى لأبنائها والفقر والأمن والذعر
هى القدر الجارى . هى السخط والرضى هى الدين والدنيا هى الناس والدهر
بذلك آمنا . فيا من يلومنا لنا فى الهوى إيماننا ولك الكفر

والغلو المسرف الذى يكاد يهلك صاحبه ويُدينه من الشرك واضح فى هذا الشعر وأمثاله . فشوقى - على ما هو معروف من صدق عاطفته الإسلامية فى كثير من شعره يقول فى الوطن ، حين أذنت السلطات الإنجليزية له بالعودة إليه بعد أن أبعد عنه منفىا طوال فترة الحرب العالمية الأولى :

ويا وطنى لقيتك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
وكل مسافر سيثوب يوماً إذا رُزق السلامة والأيابا
ولو أنى دُعيت لكنت ديني عليه أقابل الحتم المجابا
أدير إليك قبل البيت وجهى إذا فُتت الشهادة والمتابا

وهذا تهوّر وشطط في القول لا يشفع له جمال الشعر ، ولا يصلح شيء أن يكون له
عذرا مقبولا . ولكن كذلك كان أسلوب أصحاب الجامعة الوطنية الوافدة ، عاطفيا
مندفعا طائشا ، يجمع بصاحبه حتى يخرج به عن الطريق .

ولم يكن أصحاب هذا الاتجاه ينكرون أنهم متأثرون بالوطنية الأوربية . ولكنهم
في الوقت نفسه لم يكونوا يرون تعاضاً بين الجامعة القومية الطارئة وبين الجامعة
الإسلامية التليدة . فمصطفى كامل يقول في خطبة له سنة ١٨٩٧ م « إن الوطنية
هى أشرف الروابط للأفراد . والأساس المتين الذى تُبنى عليه الدول القوية والممالك
الشامخة ، وكل ماترونه في أوربا من آثار العمران والمدنية ماهو إلا ثمار الوطنية » .
ويقول في خطبة أخرى سنة ١٩٠٠ م :

« قد يظن الناس أن الدين ينافى الوطنية ، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من
الوطنية في شيء . ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان ، وأن الرجل الذى
يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبا صادقا ، ويفديه بروحه وما تملك يده . ولست
فيا أقول معتمدا على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث
بالتعصب والجهالة ، ولكنى أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بشارك أكبر ساسة
هذا العصر ، وهو رجل خدم بلاده ورفع شأنها . فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى
صوته : لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم معها محبة الأوطان » .

ومصطفى كامل هو نفسه الذى يدعو في صدر كتابه (المسئلة الشرقية) إلى شد
أزر الجامعة الإسلامية ممثلة في الخلافة العثمانية ، ويهدد إنجلترا بأن أى مَساس بها

سيكون مجلبة لحروب مدمرة حيث يقول : « إن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام سيكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تُعدّ بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صيبانية ٠٠ فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الأمور أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين والمسيحيين تجري كالأنهار والبحار في كل واد » .

وفي ذلك المعنى يقول شوقي في قصيدته (مسجد أيا صوفيا) التي كتبها ١٨٩٧ م والتي بدأها بقوله :

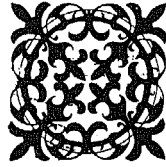
كنيسة صارت إلى مسجد	هدية السيد للسيد
قد جاءها الفاتح في عصبة	من الأسود الرُكع السُّجَّد
رمى بهم بنيانها مثلما	يصطدم الجلمد بالجلمد
فكَبَرُوا فيها وصلى العدا	واختلط المشهد بالمشهد
وما توانى الروم يفدونها	والسيف في المَفْدَى والمفتدى
فيالتأر بيننا بعده	أقام لم يقرب ولم يبعد
باق كثار القدس من قبله	لا تنتهى منه ولا يبتدى
فلا يُقَرِّنك سكون الملا	فالشر تحت الصارم المغمد
لن يترك الروم عباداتهم	أو ينزل الترك عن السؤدد
هذا لهم بيت على بيتهم	ما أشبه المسجد بالمسجد
فإن يعادوا في مفاتيحه	فياليوم للورى أسود
يشيب فيه الطفل في مهده	ويُزَعَج المَيِّتُ من المرقد
فكن لنا اللهم في أمسنا	وكن لنا اليوم وكن في غد

وأوضح من ذلك كله وأظهر اعتدالا وأبعد عن الغلو والشطط وعن مواطن الزلل ماورد في خطاب حسن البنا مؤسس إحدى الدعوات الإسلامية الكبرى في العصر

الحديث ، في المؤتمر الخامس بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيس دعوة الإخوان المسلمين (١٩٤٧ - ١٣٥٧ هـ) حيث يقول :

« إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود ، ولا يرون بأسا من أن يعمل كل إنسان لوطنه ، وأن يقدمه في الوطن على سواه • ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض • ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام » •

« وأنا في غنى بعد هذا البيان عن أن أقول إنه لا تعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار • وبأن كلا منها تشد أزر الأخرى وتحقق الغاية منها ، فإذا أراد قوم أن يتخذوا من المناداة بالقومية الخاصة سلاحا يُميت الشعور بما عداها فالإخوان المسلمون ليسوا معهم • ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس »



الجامعة المصرية والجامعة العربية

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

كانت الجامعتان القوميتان الطارتان اللتان تنافسان الجامعة الإسلامية هما الجامعة المصرية في مصر ، والجامعة العربية في جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام • أما الجامعة المصرية فكان يتزعمها فريق من المثقفين ثقافة غربية وعلى رأسهم أحمد لطفى السيد ، ومعهم فريق من الموالين للاحتلال الإنجليزي الذين ترتبط مصالحهم به ، وكانت تمثلهم صحيفة (الجريدة) التى قدمنا نماذج من بعض ما كانت تنشره • أما الجامعة العربية فكان يتزعمها الشريف حسين وأولاده على وعدٍ من الإنجليز أن يجعلوه ملكا على الدولة العربية التى تشمل جزيرة العرب والعراق وبلاد الشام ، وأن لا يعارضوا فى تنصيبه خليفةً على المسلمين • وخاض الحرب هو وأولاده فى سبيل ذلك إلى جانب الحلفاء حتى دخلوا دمشق تحت رايته ، راية الثورة العربية • ثم خابت آمال الشريف حسين وتبين له بعد فوات الوقت أن الإنجليز خدعوه ، وأنهم اتفقوا مع فرنسا على تقسيم هذه المنطقة بينها ، ومع اليهود على منحهم وطنا قوميا ، فى نفس الوقت الذى وعدوه فيه بأن يكون ملكا عليها • وتم هذا التقسيم بعد الحرب ، فاحتلت إنجلترا العراق وشرق الأردن وفُرضت وصاية على فلسطين تحت إشرافها تمهيدا لإقامة دولة إسرائيل ، واحتلت فرنسا سوريا ولبنان • ونشأت فى هذه البلاد قوميات مستقلة تشبه القومية المصرية •

وفى ذلك يقول الشاعر أحمد محرم مخاطبا فيصل ابن الشريف حسين حين مرّ بمصر سنة ١٩٢٠ م :

نزىلَ النيلَ أين تركت ملكا ألمَّ ببابك العالى نزىلا

وأين التاج يرفع في دمشق فيصدع هامة الجوزاء طولاً
وأين الجند حولك تزدهيه مواكب تحمل الخطر الويلاً
ولا يزال الشاعر يصور ليفصل وأبيه آثار غدرها بدولة الإسلام • ثم يطلب إليه في
ختام القصيدة أن يثق بالله وأن يستغفره مما جنت يده ، مؤملاً أن تكون هذه الكارثة
مفتاحاً للفرج ، ومنبهة للمسلمين إلى استئصال جرثومة الداء :

أظّل جموعهم حدث مهول ليكشف عنهم الحدث المهول
وما شق الدواء على مريض إذا ما استأصل الداء الويلاً
قل اللهم غفار الخطايا إليك نتوب فارزقنا اليقينا
عرفنا الحق بعد الجهل إنا وجدنا الجهل للأقوام غولاً
وإلى ذلك يشير شوقي في رثائه للشريف حسين حين يقول :

قم تحدث أبا على إلينا كيف غامرت في جوار الأرقام
لم تبال النيوب في الهام خُسْنَا وتعلقت بالحواشي النواعم
هات حدث عن العوان وصفها لا تُرْع في التراب ما أنا لاثم
كُنْنا واردُ السراب وكلُّ حَمَلُ في وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من الغنائم حظاً ووردنا الوغى فكنا الغنائم
أما القومية المصرية فقد انتهت أمرها بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا وسقوط
الخلافة الإسلامية إلى أن أصبحت دعوة انغزالية تتجاهل كل رابطة تتجاوز حدودها ،
وتنكر وجود أى صلة بين مصر وبين غيرها من البلاد العربية أو الإسلامية •
وبلغ الغلو ببعض المفكرين والأدباء أن دعوا إلى إنشاء أدب مصري خاص يتميز
عن الأدب العربي •

وفي ظل هذه الدعوة أطلت النعرة الفرعونية برأسها وأسفرت عن وجهها ، بعد أن
كانت لا تظهر إلا مقنّعة أو من خلف ستار • وانتهز دُعائها هذه الفرصة المواتية ،
فنشطوا لغزو الأفكار بها ، وملثوا أبصار قارئى الصحف وأسباع شاهدي الندوات

بالدعاية لها ، ورسوموا رأس أبي الهول على طوابع البريد وعلى أوراق النقد ، كما فعل الترك بالذئب الأغبر . واتخذته النحات محمد مختار شعارا لتمثال نهضة مصر ، الذي وُضِعَ نموذجُه في باريس سنة ١٩٢٠ م ، واتخذت كل كلية من كليات الجامعة شعارا لها يمثلُه وثن من معبودات الفراعنة . ونقلت رفات سعد زغلول بعد وفاته بثلاث سنوات إلى ضريح بُنى على طراز فرعوني ، وشاع هذا الطابع في كثير من أبنية الحكومة وأوراقها الرسمية ، وفي الزخرفة والنقش . ووقف حافظ إبراهيم في الحفل الذي أقيم في فندق (الكونتنتال) لتكريم عدلى يَكُنْ بعد عودته من أوروبا قاطعا للمفاوضات مع الإنجليز سنة ١٩٢١ م ، فألقى قصيدة تسيطر عليها هذه النزعة الفرعونية من أولها إلى آخرها [وفيها يقول] :

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أنبى قواعد المجد وحدي
وبُناة الأهرام في سالف الدهر كِفُونى الكلام عند التحدي
أنا تاج العلاء في مَفْرِق الشر ق ودُرّاته فرائد عقدي
أى شىء في الغرب قد بهَرَ الناس جبالا ولم يكن منه عندي ؟
هل وقفتم بِقَمّة الهرم الأكبر جريوماً فَرِثُمو بعض جهدي ؟
هل رأيتم تلك النقوش اللواتى أعجَزَتْ طَوْقَ صنعة المتحدّي ؟
حال لون النهار من قَدَم العهد د وما مسّ لونها طولُ عهد
هل فهمتم أسرار ما كان عندي من علوم مخبوءة طَى بَرْدِي ؟
ذاك فنّ التحنيط قد غَلَب الدهر وأبلى البلى وأعجَزَ يَدِي
قد عقدت العهود من عهد فرعون ففى مصرَ كان أول عَقْد
وتملك النعرة الفرعونية الشاعر ، فيفاخر بالفراعنة كل حضارة قديمة حين يقول :
أنا أمّ التشريع قد أخذ الرُّو مَانُ عنى الأصول من كل حَدّ
ورصدت النجوم منذ أضاءت في سماء الدجى فأحكمتُ رصدي
وشدا (بَنَتُورُ) فوق ربوعى قبل عهد (اليونان) أو عهد (نجد)

وهكذا يبدو أن عهد (نجد) وشعرائه ليس له من الكرامة عند الشاعر أكثر مما
لعهد اليونان وشعرائه ، أو الرومان ورجال القانون فيه .

واجتاحت مصر موجة من الفرعونية تحاول أن تغزو سائر النواحي الثقافية ، وتدعو
إلى إقامة الفنون على أسس فرعونية . وترزمت صحيفة (السياسة الأسبوعية) هذا
الاتجاه الجديد ، فأفسحت صدرها لدعائه ، وكثر حديثها عن الفراعنة ، فلم يخل عدد
من أعدادها من حديث عن حضارتهم وثقافتهم ومجدهم . وكتب رئيس تحريرها في
مقال عن (مصر الحديثة ومصر القديمة) يزعم أن ما يتوهمه بعض الناس من أن تغير
الدين في مصر من الوثنية إلى المسيحية ثم الإسلام ، وتغير اللغة فيها من الهيروغليفية
إلى العربية ، قد قطع ما بين مصر الحديثة وبين مصر القديمة من صلات ، ليس إلا
وهما من الأوهام ، وأن الحقيقة العميقة هي أن هذه الصلة قائمة لاشك فيها بيننا وبين
أجدادنا الفراعنة . ويشطح بالكاتب خياله في خاتمة مقاله ، فيتخيل هذه الفرعونية
التي يدعو إليها ديناً جديداً سيغزو بمبادئه العالم هادياً ومبشراً ، ليحقق به الناس
السعادة والمتعة والطمأنينة ، حين يملّون نشاطهم المادى الذى لا بُدَّ أن يقف في يوم من
الأيام . « ويومئذ يشعر العالم بظماً إلى الحياة النفسية الفنية . ولعله واجدُها في هذا
الذى نطلب إلى مصر أن تقوم به اليوم » .

ويعجب السامع إذا عرف أن كاتب هذا المقال هو (محمد حسين هيكل) الذى
أعلن توبته عن خطئه من قريبٍ في مقدمة كتابه (في منزل الوحي) الذى صدر سنة
١٣٥٦ هـ (١٩٣٦ م) حيث يقول :

« وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية ، لنتخذها
جميعاً هُدًى ونبراساً ، لكننى أدركت بعد لأيٍ أننى أضع البذر في غير منبته ، فإذا
الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه . وانقلبتُ ألتمس من
تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موثلاً لوحى هذا العصر يُنبئ فيه نشأة جديدة .
فإذا الزمن ، والركود العقلى ، قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سببٍ قد يصلحُ

بذرا لنهضة جديدة • وروأتُ فرأيتُ أن تاريخنا الإسلامى هو وحده البذر الذى يُنبِت ويُثمر • ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو • ولأبناء هذا الجيل فى الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين » • ثم يبين هيكَل ما تمتاز به المبادئ الإسلامية من مزايا إنسانية تجمع أتباعها على أخوة خالصة تتفوق بها على ذلك الذى نقلناه عن الغرب فيما يدعو إليه « من تقديس القوميات ، وتصوير الأمم وحداتٍ متنافسة ، تحكُم أسبابُ الدمار بينها فيما تتنافس عليه » •

لذلك كان فرح الإسلاميين فى مصر عظيما بيزوغ فجر الجامعة العربية التى تدعو إلى جمع شمل العرب من أقصى المشرق فى العراق إلى أقصى المغرب على شاطئ المحيط • ورأوا فيها منقذا من النزعة الفرعونية التى تمكنت من قلوب الشباب ، كما رأوا أنها أفضل بديل مُتاح من الجامعة الإسلامية التى تفككت عُراها بسقوط الخلافة الإسلامية بعد هزيمة الدولة التى كانت قِوامَ أمرها واسطة عِقْدِها • ولذلك أيضا كان موقف دعاة العزلة والوطنيات الإقليمية ودعاة اللبرالية اللادينية من هذه الجامعة العربية هونفسه موقفهم بالأمس من الجامعة الإسلامية • لأنهم كانوا يرونها ظلًا لها أو قَبَسًا من نورها •

ولكن فريقا من الاسلاميين ظلوا متأثرين بالظروف التى أحاطت نشأة الجامعة العربية حين كانت فكرة ومبدأ ، وبعد أن أصبحت مؤسسة سياسية ، وظلت فى تقديرهم فرعا من الاتجاه القومى الوافد على بلاد المسلمين من أوروبا ، والذى كان سببا فى تمزيق الجامعة الاسلامية • وزادوا إعراضا عنها حين انحرفت من بعد عن طريق الإسلام ، بتسلل زعامات غير إسلامية أقحمت عليها مذاهب ومناهج فى السياسة والاقتصاد تناقض الإسلام مناقضة ظاهرة • وانتهى الأمر إلى أن تُفَضَّ بعض أنصار الجامعة الإسلامية أيديهم من الجامعة العربية ، فتركوا الميدان مفتوحا لتحريفات المحرّفين فى هذا الميدان • ولم يكن الإسلاميون فى ذلك على صواب • فقد كان عليهم أن يعرفوا أن فى الدول التى تضمها الجامعة الإسلامية من

الانحرافات مثْلَ الذى يَشْكُون منه فى الجامعة العربية أو أكثر • فيهم أقلّيات غير مسلمة • وفى مسلميهم عدد كبير من المتفرنجين والمفتونين بالحضارة الغربية • وفيهم عدد كبير من دعاة القومية المتطرفين الذين يرون أن الجامعة الوطنية لا تقوم إلا على المصالح المشتركة ، وأن الدين لا يصلح لأن يكون أساساً لتجمع سياسى • والعاطفة الإسلامية إن كانت حية فى جماهيرهم ، فالذين يوجهون الفكر من الساسة والكتاب ورجال الإعلام وأجهزة التعليم من المتفرنجين وأصحاب الثقافات الغربية فى كثرتهم الغالبة • وما العرب إلا مسلمون • بل هم جرثومة الإسلام وأصله الأول وقلبه النابض • فإذا عَجَزنا عن تقويم جامعتهم وحملها على الإسلام ، فنحن أعجزُ عن تقويم جامعة المسلمين وحملها عليه • فلنبداً بما بدأ به الإسلام حين أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُنذِرَ عشيرته الأقربين ، دون أن يمنعنا ذلك من العمل فى الوقت نفسه لجمع شمل المسلمين • على أن المسلمين - والدعاة منهم بخاصة - مكلفون أن يواجهوا الانحراف فى قومهم وأن يصححوا ما اعوجَّج من مفاهيم المجتمع العربى • ومن أهم ما يدخل فى ذلك مفاهيم (القومية العربية) ، التى أفضل أن أسميها (الوحدة العربية) • أما أن ندعو إلى (الجامعة العربية) حين كانت (الجامعة الإسلامية) حقيقة قائمة • ثم ندعو إلى (الجامعة الإسلامية) حين أصبحت (الجامعة العربية) حقيقة ماثلة ، فما ذلك برأى ، ولا هو بوجه الحزم والصواب عند أصحاب الجِدِّ والعَزْم •

والسلام عليكم ورحمة الله •



سقوط الخلافة الإسلامية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

لا نستطيع أن نختم الكلام عن الصراع الذى دار بين الجامعة الإسلامية والجامعة القومية قبل أن نقف وقفة قصيرة عند أقصى محنة مرت بها الجامعة الإسلامية فى هذا القرن ، بل فى تاريخها الطويل منذ ظهور الاسلام ، وهى إلغاء الخلافة الإسلامية ، الذى شغل شعراء المسلمين وكتّابهم ومفكرهم فى أقطار الأرض •

تمخضت الحرب العالمية الأولى وما ترتب عليها وتلاها من تقلبات عن أخطر ظاهرة فى حياة الإسلام والمسلمين • فللمرة الأولى فى حياتهم سقطت الخلافة ، بعد أن اتصلت حلقاتها خلال ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، تنقل مركز الخلافة فيها بين عواصم البلاد الإسلامية المختلفة ، ولكنه ظل فى كل الأحوال رمزاً للرابطة التى تجمع بين المسلمين فى شتى بقاع الأرض ، وظلت الدولة القائمة بأمر الخلافة مكلفة فى نظر المسلمين برعاية شؤونهم واسعاف منكوبيهم والأخذ بيد ضعيفهم وإقامة شريعة دينهم وشعائره ، فكانت على ما قال شوقي فى رثائها عند إلغائها :

جمعت على البرّ الحضور • وربما جمعت عليه سرائر النّزّاح

وكانت دولة الخلافة تقوم بواجبها كاملاً أو تفرط فيه وتتساهل فى بعضه حسب الظروف والأحوال •

وقد يبدو الأمر غير خطير إلى حد الإزعاج فى أعين أبناء هذا الجيل ممن لم يعرفوا الخلافة الإسلامية ، ومن يتخيلون أنها طراز من الأشكال التاريخية التى طواها الزمن • ولكن شعور الذين عاصروا الخلافة الإسلامية وولدوا فى ظلها وعاشوا فى دولتها كان مختلفاً جداً الاختلاف • فقد كانت فى نظرهم وعاء للإسلام ، ورمزاً

لوحده ، وتحقيقا لوجوده في قلب الحياة • وكان فزعهم لإلغائها فزع من عاد يوماً إلى بيته الذي يؤويه ، أو المسجد الجامع الذي يضمه إلى المسلمين في يوم جمعة أو عيد فوجده مهدوما •

وامتلأت قلوب المسلمين حزنا لمصير الأستانة ، مقر الخلافة ، وقد احتلتها جيوش الأعداء ، وتقاسمها الإنجليز والفرنسيون والطيالان ، وسيطروا فيها على كل شيء ، حتى أصبح الخليفة سجيناً أو كالسجين • ثم اضطر إلى الهرب بعد أن احتلها الكماليون • وقد عبّر حافظ إبراهيم - وهو شاعر لا يُعدّ في شعراء الجامعة الإسلامية المتحمسين لها - عن شعور المسلمين في قوله ، مخاطباً مسجد أيا صوفيا الذي قرر الكماليون تحويله إلى متحف ، وإعادته إلى صورته الأولى يوم كان كنيسة قبل محمد الفاتح :

أيا صوفيا حان التفرق فاذكري عهد كرام فيك صلّوا وسلموا
إذا عدت يوما للصليب وأهله وحلّى نواحيك المسيح ومريم
ودقت نواقيس وقام مزمر من الروم في محرابه يترنم
فلا تنكري عهد المساجد إنه على الله من عهد النواقيس أكرم
تباركت (بيت القدس) جذلان آمن ولا يأمن (البيت العتيق) المحرم
أبرضيك أن تغشى سنابك خيلهم حماك وأن يُمنى (الخطيم) و (زمزم)
وكيف يذل المسلمون وبينهم كتابك يُتلى كلّ يوم ويكرم
نيك محزون وبيتك مطرق حياء وأنصار الحقيقة نُوم
عصينا وخالفنا فعاقبت عادلا وحكمت فينا اليوم من ليس يرحم

وتهدأ نفوس الناس ، ويستيقظ الأمل في قلوب كاد يقتلها اليأس ، حين يتراعى إليهم نبأ ثورة مصطفى كمال في الأناضول وقرده على قوات الاحتلال ورفضه ما أملتته على تركيا من شروط مُذِلَّة قاسية في معاهدة (سيفر) • وتعلق آمالهم بالبطل الشاب

وهو يقود المتمردين في قتال يائس مع اليونان ، الذين انتشروا في قرى أزمير ، يدمرون كل ما يصل إلى أيديهم ولا يرعون لشيء حرمة ، وقد انفصل عن السلطة المركزية ، حيث يعيش (الخليفة) مغلوبا على أمره في الأستانة ، واتخذ (أنقرة) محلا لحركته ، ودُهِش الناس حين رأوا هذا القتال اليائس ينقلب إلى انتصار يتلوه انتصار ، حتى تم له إجلاء اليونان عن الأناضول كله سنة ١٩٢٢ م بعد أن كبدهم خسائر فادحة . والذي يقرأ قصائد الشعراء الذين هلكوا لهذا الانتصار يحس أنهم كانوا يعتبرونه انتصارا للإسلام على المسيحية ، كما يقول اللورد ويفل في كتابه

Allenby in Egypt

وقد صدق . فشوقي في قصيدته المشهورة يقرن مصطفى كمال بخالد بن الوليد في أول بيت من أبياتها حيث يقول :

الله أكبر . كم في الفتح من عجب ياخالد الترك جدد خالد العرب

فهذا القائد المظفر هو في نظره مبعوث العناية الإلهية لإقالة عشرة الخلافة وإحياء مجد الاسلام . فمقامه من الترك هو مقام خالد بن الوليد من العرب . كلاهما قد قاد جيوش المسلمين ، منتقلا بها من نصر إلى نصر . ثم هو يشبّهه في جهاده جيوش المسيحية بصلاح الدين الأيوبي في الحروب الصليبية ، إذا قورنت شهامته وإنسانيته بوحشية الجيوش اليونانية وانتهاكها للحرمان حيث يقول :

حذوت حرب الصلاحيين في زمن فيه القتال بلا شرع ولا أدب

ويقرن الشاعر انتصار مصطفى كمال بانتصار المسلمين في بدر حيث يقول :
يوم كيدر . فخيّل الحق راقصة على الصعيد . وخیل الله في السحب

ويعضى في تنويع البطل الظافر ، مصورا فرحه وفرح المسلمين ، الذين تلهج السنتهم بشكر الله على نعمته .

وكان المسلمون في فرحهم بانتصار مصطفى كمال يبررون كل ما يصدر عنه ويحملونه على حسن الظن به ، راجين من ورائه الخير • وقد بلغ من حسن ظنهم به أنهم دافعوا عن عمله حين عزل الخليفة عن السلطة وجعل الأستانة مقرا للخلافة المجردة من السلطة ، وجعل أنقرة مركزاً لرئيس الدولة صاحب السلطة • مع أن هذا العمل كان سابقة لا نظير لها في تاريخ المسلمين • بل لقد بلغ من حماسهم أن هاجموا الخليفة والمفتي الذي أفتى بإهدار دم مصطفى كمال • وفي ذلك يقول شوقي :

أُيْقَالُ فِتْيَانُ الْحَمَى بِكَ قَصَرُوا أَمْ ضَيَعُوا الْحُرُمَاتِ أَمْ خَاتُوكِ
وَهُمُ الْخِيفَافُ إِلَيْكَ كَالْأَنْصَارِ إِنَّ قَلَّ النَّصِيرَ وَعَزَّ مِنْ يَفْدِيكَ
وَالْمَشْتَرُوكِ بِمَا لَهُمْ وَدُمَائِهِمْ حِينَ الشَّيْخُ بِجُبَّةٍ بَاعُوكِ
هَدَرُوا دِمَاءَ الذَّائِدِينَ عَنِ الْحَمَى بِلِسَانِ مَفْتَى النَّارِ لَا مَفْتِيكَ
شَرَبُوا عَلَى سِرِّ الْعَدُوِّ وَغَرَّدُوا كَالْبُومِ خَلْفَ جِدَارِكَ الْمَدُوكِ
لَوْ كُنْتُ (مَكَّة) عِنْدَهُمْ لَرَأَيْتَهُمْ (كَمُحَمَّد) وَ (رَفِيقِهِ) هَجَرُوكِ

وبينما الناس مشغولون بتبرير تصرفات مصطفى كمال والدفاع عما ابتدعه في الخلافة حين جردها من السلطة وفصلها عن الدولة ، إذا بهم يفاجئون بالرجل الذي يضعون فيه ثقتهم وآمالهم ويحتهدون في حمل تصرفاته المريبة على أحسن الوجوه ، يكشف القناع فجأة عن وجهه ، ويُسفر عن حقيقة نواياه ، فيلغى الخلافة ، ويطرد الخليفة وآله وأسرتهم جميعا إلى خارج حدود تركيا ، بعد أن جرّدهم من كل أملاكهم وأموالهم •

ويرتفع صوت شوقي بقصيدة من أعنف قصائده وأصدقها عاطفة ، يهاجم فيها مصطفى كمال ، ويبكى الخلافة التي ماتت حين ظن الناس أنها قد استقبلت عهدا جديدا كله عزة ، فإذا صوت الباكين يرتفع ، معلنا موتها المفاجيء في صَحْبِ المحتفلين

بعرسها ، فتكفّن في ثوب الزفاف ، بين جزع الجازعين ، وذهول الداهلين ، وعبرات
الضاحكين • الدمع في عيونهم وظل الابتسامة في شفاههم •

عادت أغاني العرس رَجَعَ نواح ونُعتِ بين معالم الأفراح
كُفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح
شُيعت من هلع بعبرة ضاحك في كل ناحية وسكرة صاحي
ضجت عليك مآذن ومناير وبكت عليك ممالك ونواحي
الهند والهة ومصر حزينة تبكى عليك بدمع سحّاح
والشام تسأل والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة مآجي

ويعتذر الشاعر عن مهاجمته لمصطفى كمال الذي كان يمدحه بالأمس فيقول :
أستغفر الأخلاق ، لستُ بجاحد من كنتُ أدفع دونه وألاحى
مالى أطوقه الملام وطالما طوقته المأثور من أمداحي
أقول من أحيا الجماعة ملحد وأقول من ردّ الحقوق إباحي
الحقّ أولى من وليك حرمة وأحقّ منك بنصره وكفاح
فامدح على الحق الرجال ولُمهمو أو خلّ عنك نصائح النصّاح

ويختتم الشاعر قصيدته بأبيات يشير فيها إلى موقفه الثابت من الخلافة ، مشيراً
إلى ماكان من تنازع رؤساء المسلمين عليها ، ومعرضاً بالشريف حسين ، الذي كان
في مقدمة الطامعين فيها بعد أن انضم للحلفاء في محاربتها :

عهدُ الخلافة في أول زائد عن حوضها يبراعه نصّاح
حبّ لذات الله كان ولم يزَلْ وهوى لذات الحق والإصلاح
إنّي أنا المصباح لستُ بضائع حتى أكون فراشة المصباح
لاتبدّلوا بردّ النبی لعاجز عزّل يدافع دونه بالراح

بالأمس أوهى المسلمين جراحةً واليوم مدَّ لهم يد الجراح
فلتسمعن بكل أرضٍ داعيا يدعو إلى (الكذاب) أو (لسجّاح)
ولتشهدن بكل أرضٍ فتنةً فيها يباع الدين بيع سباح
يُفتى على ذهب المعزّ وسيفه وهوى النفوس وحقدّها الملّحاح

وقد ظل هذا الجرح حيا يتجدد في القلوب كلما حل بالمسلمين رزء جديد . وهذا هو
أحمد محرم تعود به ذاكرته إلى تلك الأيام ، حين أعدم الطليان البطل الليبي الشهيد
(عمر المختار) سنة ١٩٣١ م فيقول :

وارحمنا للمسلمين تفرقوا وتباعدوا في الأرض بعد تداني
فلئن بكيتُ لقد وجدت مُصابهم في منكبي وجوانحي وجناني
ما بالدموع المستهلة ريبة هي في الجفون عصارة الوجدان
مَنْ كان أبصر خطبهم فأنا الذي مارسه ولسته بيناني
مازلتُ أجمع بالقريض شتاتهم حتى انقضى أدبى وضاع زمانى

ومن أحسن ماكتب في مهاجمة مصطفى كمال وتصوير انحرافه مقال (مصطفى
صادق الرافعى) « تاريخ يتكلم » . وقد جاء فيه :

« إن هذا الطاغية ملكٌ حاكم ، يستطيع أن يجعل حماقته شيئا واقعا ، فيقتل علماء
الدين بإهلاكهم ، ويقتل مدارس الدين بإخراها ، ولو شاء لاستطاع أن يشنق من
المسلمين كلّ ذى عمامة في عمامته . ويبلغ من كفره أن يتبجح ويرى هذا قوة ، ولا
يعلم أنه لهُوانه على الله قد جعله الله الذبابة التى تصيب الناس بالمرض ، والبعوضة
التي تقتل بالحمى ، والقملة التى تضرب بالطاعون . فلو فخرت ذبابة ، أو تبجحت
قملة ، أو استطالت بعوضة ، لجاز أن يطنّ طنينه في العالم . وهل فعل أكثر مما
تفعل ؟ »

« إنه والله ما قَتَلَ ولا شَتَق ولا عَذَّب • ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله ، وأعوزه ذلك النوع السامي من الموت الأول ، الذى كان حياة الفكر ومادة التاريخ ، فجاءت القملة تحمل طاعونها • »

« لقد أحياهم في التاريخ • أما هم فقتلوه في التاريخ • وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين • أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعا • »

« كأنه لا يعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لاعلى التاريخ ؛ ويحكم على طاعة قومه وعصيانهم ، لاعلى قلوبهم وطباعهم وميراثهم من أسلافهم ، فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيثان : تَنَن رِمَّتْه في بطن الأرض ، وتَنَنُ أعماله على ظهر الأرض ، إن هذا الرجل المسلط كالغبار المستطار ، لا يُكَنَس إلا بعد أن يقع • »





الاسلام ونظم الحكم المعاصرة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

إلى جانب الخلاف الذى نشأ حول تصور الأمة والدولة والوطن ، هجبت على المسلمين ألوان من الفكر السياسى وتطبيقاته فى نظم الحكم والإدارة فتن بها كثير من الناس ، حتى لقد بدأ الإسلاميون يبحثون عن مشابه ويفتشون عن نماذج ووقائع تلتقى فيها هذه النظم مع الإسلام • بل لقد نسبها بعضهم للإسلام أو نسب الإسلام لها ، حين وصفوه تارة بأنه ديمقراطى وتارة أخرى بأنه اشتراكى ، وتارة ثالثة بأنه أول من دعا إلى الحرية الفردية وتحرير المرأة • وليس الإسلام من ذلك كله فى شيء ، وظن كثير من السذج أن فى هذا النسب الذى اختلقوه ما يجب الإسلام إلى هذا الجليل المفتون بتلك النظم الوافدة والتي تحفها دعايات نشطة واسعة تصور للناس أنها هى الحل لما يشكون منه ، وأن حياتهم ستطيب فى ظلها فيتخلصون من الظلم والفاقة والمرض والحرمان ويعيشون حياة طيبة سعيدة تخلصهم من المنغصات • والظلم والفاقة والمرض والحرمان كلها آفات يتعرض لها الناس أحيانا فى ظل أى نظام ، لأنها من نواميس الله فى خلقه ، يبلوهم بها ويمحصهم ويزكيهم • ولكن المؤمنين يعيشونها ويتعرضون لها ويقاومونها وهم راضون بقضاء الله العليم الحكيم ، مُقَرُّون بقصور معرفتهم وتقديرهم فى جانب علمه وحكمته • فيعانون منها دون أن تضطرب نفوسهم لها ، ودون أن يتعرضوا للصراع النفسى الذى يعانى منه الواقعون تحت تأثير الدعايات التى تدعوهم للثورة عليها ، وتلوح لهم بجنة سعيدة من السراب تخلص منها ، فى ظل هذا النظام أو ذاك •

والمخدوعون بهذه الدعايات كثرتهم من الشباب البريء القلب الخصب الخيال

الطموح إلى المثالية ، أو الجانح إلى ما يدعوه إليه داعى الشباب من الشهوات •
لذلك تخلبه الصور المثالية التى تقدمها هذه الدعايات ، لأن خياله أقوى من عقله ،
ولأن آماله التى لا تحدّها حدود أوسع من تجربته ومن خبرته النابعة من ممارسته ، أو
لأن فورة الشباب وطفيان الشهوة أغلب على سلوكه من الأناة وتدبر العواقب • وقد لا
يبالي فى طموحه وخصب خياله وسعة آماله ونهم شهواته أن تكون هذه النظم التى فُتِنَ
بها مطابقة للإسلام أو معارضة له • فهى عنده صحيحة ومحبية على أى حال • وقد
يحاول التخلص مما يعاينه من الأزمة الناشئة عن التمزق الداخلى بنسبة هذه النظم
إلى الإسلام ، أو بأن يزعم لنفسه أن الإسلام لا يستهدف إلا خير الناس
وصالحهم • فهو إذن لا يتعارض مع أى نظام يسعى لإسعادهم • ومردُّ هذا الخلط
والخطب راجع إلى أن الناس - وشبابهم على وجه الخصوص - يجهلون ، بل ينسَوْنَ أو
يتناسَوْنَ ، أن معرفتهم محدودة • ولذلك فإدراكهم للخير والشر محدود • لأن معرفة
الخير والشر ، والنافع والضار ، مبنية على الإدراك الكامل لحقائق الأشياء التى لا
تحدّها حدود الزمان والمكان ، ولعلّتها الأولى وغايتها الأخيرة • والمعرفة الإنسانية
محدودة بحدود الزمان والمكان • بل هى فى داخل قيود الزمان والمكان محدودة بحدود
المتاح للإنسان مما هو غير محجوب عنه ، من الغيب الذى لا تدركه حواسه ولا يتناول
إليه فكره • وهو مع ذلك محجوب عن معرفة العلة الأولى والغاية الأخيرة ، إلا رجاءً
بالن الذى لا يغنى عن الحق شيئاً • ومنْ كان هذا مَبْلُغَ عجزه ومنتهى إدراكه كيف
يسوغ له أن يعارض مشيئة الله فيما أوحى إلى رسله ، وفيما رسم لهم من الحدود التى تميز
بين الخير والشر ، والنافع والضار ، والحلال والحرام ، بدعوى أنه لا يعرف حقيقتها ،
• يدرك وجه المصلحة والضرر فيها ؟

ومن أروع الأمثلة فى هذا الصدد ما ورد فى سورة الكهف من قصة سيدنا موسى
مع العبد الصالح • خرَّقَ العبد الصالح السفينة فأنكر عليه موسى عليه السلام
عمله ، لأن عمله فى ظاهر أمره وفى حدود المعرفة المتاحة لأى إنسان شرٌّ خالص لا

خير فيه • ولكنه ليس كذلك عند من كشف الله له عن معرفة ماضى أصحاب السفينة وحقيقة حالهم ، وهي أنهم مساكين يعملون في البحر ، ويعتمدون عليها في معاشهم ، ولا يستطيعون شراء غيرها • ومن كُشِفَ له عن علم ما سيكون من أنهم سيصادفون ملكاً ظالماً جباراً يأخذ كل سفينة غصباً ، وأن خرقها سيبيها فيتركها الملك لأصحابها • عند ذلك تنقلب الموازين ويظهر الخير فيما كان في ظاهره شراً خالصاً • ويقتل العبد الصالح غلاماً دون أن يبدو منه ما يدعو لذلك • ويستنكر موسى عليه السلام عمله ، لأنه لا يعلم ما علّمه العبد الصالح من أن أبويه مؤمنان ، ولا يعلم ما سيكون من مستقبل أمر الغلام وأبويه ، وأنه سيرهقهما طغياناً وكفراً ، وأن الله سيبدلها خيراً منه زكاةً وأقرب رُحماً •

ويجوع موسى والعبد الصالح في بلد رفض أهله أن يضيّفوها ، فيبنى فيه العبد الصالح جداراً يوشك أن يتهدم • ويبدو العمل في حدود المعرفة المتاحة لأى إنسان يراه وضِعاً للإحسان في غير موضعه ، وأن أهل هذه القرية الظالمة لا يستحقونه • وكان الأولى أن يتخذ عليه العبد الصالح أجراً • ثم يبدو الإحسان في موضعه الصحيح حين يطلعه على ما علّمه الله مما غاب من حقيقة الحال • فالجدار للغلامين يتيمين في المدينة ، وتحت كنزها ينكشف وينهب إذا سقط ، وما غاب مما كان ، من أن أبويهما كانا عبيدين صالحين • وما غاب مما سيكون من أن الغلامين سيستخرجان كنزها بعد أن يبلغا أشدهما •

وقد تبدو بعض الظواهر شراً خالصاً ليس فيه للخير مكان • والله يعلم أن فيها من الخير ما يخفى على الخلق ، وأن عمران الكون مبنى عليها • وذلك في مثل قوله تعالى (كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهُ لكم • وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم • وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرُّ لكم) • وعِلَّةُ جهل الخير والشر في ذيل الآية (والله يعلم وأنتم لا تعلمون) • يعلم الله ولا يعلم الناس أن عمران الكون في التنافس

الناشئ من دفع الناس بعضهم ببعض (ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض
لفسدت الأرض • ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين) •

وليس من المحتم أن يكون الخير الخفيّ عن الناس عاجلا يظهر أثره في هذه الحياة
الدنيا • وليس الخير محصورا في غذاء يملأ البطون أو كساء يختال على الأبدان أولذة
تغرق فيها الحواس • فقد لا يكون الخير عاجلا • وقد لا يكون متصلا بأجسادنا
الفانية • ذلك أن الإسلام يعمل للوجود كله وأقله وأتفهه الوجود الدنيوى الأرضى وما
يتصل به من حاجات الأجساد • وأبقاه وأدومه ما صحب صاحبه في وجوده الممتد
الذى لا يحصيه علمنا ولا يبلغه خيالنا • فإذا كانت غايات السياسة والاقتصاد
إرضاء الشهوات (من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل
المسومة والأنعام والحَرْث) فغاية الإسلام رضا الله • وإذا كانت مطامع الناس
محصورة في إشباع شهوات النفس فههدف الإسلام تزكية النفس وتطهيرها ، بحملها
على ما تكره من الجهاد في السلم والحرب ، وإخراجها عما تؤثر من الدعة والكسل ،
لتخرج من سجنها الضيق المحصور في ذاتها إلى عالم ربانى أوسع وأرحب • على أن
كل ما تسعى له السياسات الأرضية يقصر عن بلوغ هدفه القريب من إسعاد الناس
في دنياهم • لأن السعادة حالة داخلية تسكن عندها النفس وتحس الراحة والطمأنينة
والسكينة ، فلا يُعذبها شعور بالحرمان مما لا تجد • والدين أدنى إلى أن يبلغ بها هذا
الهدف من كل سياسات الساسة والفلاسفة • ولكن الله ركب الحرص والشح في
خلقه لتعمر بهم الدنيا وتتنظم ، وليدفع بعضهم ببعض ، ويبلو بعضهم ببعض • ثم لا
يتخلص من ذلك إلا النخبة القليل ، بعد الجهاد الشاق الطويل •

الديمقراطية والاشتراكية والبرالية :

أين هي من الإسلام ؟

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وبعد

أكثر الذين يحملون الاسلام على الحضارة الغربية ، أو يحملون الحضارة الغربية عليه ، يقعون لمعرفتهم المحدودة وتجربتهم الفجّة في كثير من المتناقضات • فهم يصفون الإسلام في بعض الأحيان بصفات متناقضة ، كالديمقراطية والاشتراكية والتحررية • مع أن الاشتراكية تناقض الديمقراطية والتحررية في أصولها التي تصدر عنها • فالاشتراكية تقوم في زعم دعائها على تغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد • والديمقراطية والتحررية تقوم أصولها في زعم أصحابها على رعاية مصلحة الفرد وتقديس حريته •

وحقيقة الأمر أن الإسلام ليس من ذلك كله في شيء • فالخلاف الأول بينه وبين هذه المذاهب على اختلافها خلاف أساسي • فالإسلام مبنى أولاً وقبل كل شيء على أن حياة الإنسان الأرضية ليست إلا جزءاً من وجود طويل لا يعلم مداه إلا الله • ولذلك فهو يسمى هذه الحياة المُدْرَكَة الحدود (الحياة الدنيا) أي القريبة ، ويسمى ماوراءها (الحياة الأخرى) ، ويقرر أنها (خيرٌ وأبقى) • والإسلام يعمل لصالح هذا الوجود كله ، بينما تعمل كل النظم التي ابتدعها الإنسان لصالح الوجود الأرضي وحده • والاسلام بعد ذلك نظام ربّاني مستقل قائم بنفسه ، قد يلتقى مع غيره من النظم البشرية في أشياء ، ولكنّ هذا لا يعنى أنها منه أو أنه منها في شيء • بل إن التقاءه معها قد يكون التقاءً في ظاهر الأمر ، مع خلاف أساسي في اللب والجوهر • فالشورى في الإسلام التي تشتهر بالشورى في الديمقراطية تختلف معها في كثير • فالشورى في الإسلام لأصحاب الحل والعقد من العلماء والحكماء وأصحاب التجربة

الناضجة والظاهرين في قومهم ، المشهود لهم برجاحة العقل واستقامة السيرة والنزاهة • وهى فى الديمقراطية لكل من هبَّ ودبَّ ، يستوى فيها رأى الأبله والحكيم ، ورأى النزيه والساقط ، ورأى من يعلم ومن لا يعلم •

على أن الشورى فى الإسلام تستهدف أولاً وقبل كل شىء تماسك المجتمع الإسلامى وتقوية وشائج المودة بين أفرادهِ ، حتى تصبح الكثرة المتعددة كأنها فرد واحد ذو إرادة واحدة ، وحتى تصبح الأحجار المتفرقة بنيانا يشد بعضه بعضا ، وتصبح الأعضاء المختلفة جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى • بينا الشورى فى الديمقراطية مظهر لصراع المصالح والمذاهب ، وقهر الأقل عددا ولو كانوا هم النُخبة الصالحة للأكثرين ولو كانوا على غير الصواب وفى غير طريق الحق • وهدف الإسلام ذاك ، الذى يختلف فيه عن هدف الديمقراطية ، واضح فى الآيات التى وردت فيها الشورى فى القرآن الكريم • فهى فى سورة آل عمران تأديب من الله تعالى لرسوله بأداب القائد والمربى والداعية • يدعوه لأن يُلين للمسلمين جانبه ، ويعفو عن ذلتهم ، ويستغفر الله لهم فيما يخطئون فيه ، ويتلطف إليهم ويشعرهم بأن لهم وجودا نافعا ورأيا صالحا ، باستشارتهم فيما يهْمُ به من أمر • كل ذلك من آداب القائد والمربى والداعية ، التى يتألف بها قلوب صَحْبهِ • ومع ذلك فالشورى غير ملزمة للرسول • يدع ما يدع منها آخر الأمر ويأخذ ما يأخذ ، حين يعزِم متوكلا على الله : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ • وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ • فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ • فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ • إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ - آل عمران ١٥٩) • هذا أحد الموضعين اللذين وردت فيهما الشورى فى القرآن الكريم • والموضع الآخر فى سورة (الشورى) • وهو فى وصف الجماعة الإسلامية المثلَى ، التى تراقب الله ، وَيَبْرُ بعضُهم بعضا ، بالنفقة على المحتاج ، والعفو عن المسىء ، دون تضيق عليهم فيما تدعوهم أنفسهم إليه من رد السيئة بمثلها ، إذا لم يُطبقوا حملَ أنفسهم على العفو • (فما أُوتِيتُمْ من

شئ فمتاع الحياة الدنيا • وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون •
والذين يَحْتَنِبُونَ كِبَاءَ الإِثْمِ والفواحشَ وإذا ما غَضِبُوا هم يَغْفِرُونَ ، والذين استجابوا
لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شُورَى بينهم ومما رزقناهم يَنْفِقُونَ • والذين إذا أصابهم
البَغْيُ هم يَنْتَصِرُونَ • وجزاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا • فمن عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ •
إنه لا يَحِبُّ الظَّالِمِينَ - السورى ٣٦ إلى ٤٠)

والحاكمة في الاسلام الله • فكتابُ الله وسُنَّةُ رسوله مصدر الأحكام • بينا الأمة أو
الشعب ممثلاً في نوابه هو عند الديمقراطية مصدر الأحكام • فالأُممُ محكومة في الإسلام
بتشريع الله الحكيم العليم • وهى في الديمقراطية محكومة بقوانين صادرة عن شهوات
الناس ومصالحهم • فالأحكام مستقرة دائمة في الإسلام • وهى متبدلة متغيرة
لا تستقر في الديمقراطية •

أما الاشتراكية الماركسية فهى تقوم على التسوية بين الناس • وعبارتهم المشهورة
في ذلك (من كل بقدر ما يستطيع • ولكل بقدر ما يحتاج) • بينا الاسلام يُدْعِن لِسُنَّةِ
الله الذى خلق الخلق متباينين في قواهم الجسدية وفي ملكاتهم الخلقية والنفسية وفي
مواهبهم الذهنية والفنية ، خلقهم متباينين في قواهم وفي ملكاتهم ومواهبهم ، مختلفين
في ألوانهم وألسنتهم ، متفرقين في أممهم وشيعهم ومذاهبهم وأديانهم • وكان من وراء
ذلك كله عِلْمٌ لا نعلمه ، وحكمة لا نحيط بها • ولو شاء لجعلهم أمة واحدة • يُقَرَّر
الإسلام ذلك ويُدْعِن له • ويعرف أن التباين في الأرزاق هو نتيجة حتمية لهذه السنن
التي يبلو فيها الله سبحانه خَلْقَهُ بعضهم ببعض • ويضرب فيها الحق والباطل ،
ليذهب الزبد جُفَاءً ثم لا يَكُثُ في الأرض إلا ما ينفع الناس •

والذين يخالفون سُنَنَ اللَّهِ ويعاندونها كَالْوَعْلِ الْأَحْمَقِ في شِعْرِ الْأَعشى ، الذى ينطح
الصخرة ليوهنها ، فلا يَضِيرُهَا ، ولا يَحْطِمُ إِلَّا قَرْنَهُ • ولذلك لم يَصْنَعْ دُعَاءَ
الاشتراكية الماركسية شيئا • زعموا أنهم أَلْعَوُ الطبقات • والحقيقة أنهم أوجدوا
طبقات من نوع آخر أكبر نفوذاً وأشد سلطاناً وأكثر استبداداً • فزعماءهم يملكون في

شعوبهم من السلطة والجاه مالم يملكه ملكٌ ولا سلطان • وطبقةُ العمال في استغلالها على سائر الطبقات تجعل الهرم مقلوبا ، قِمَّتُهُ في أسفله ، لأن الله فضل الإنسان على سائر خَلْقِهِ بالعقل • فسيادة العمال والكادحين تعنى أن المجتمع الإنسانى يخرج من الإنسانية إلى الحيوانية ، لأنه يصبح محكوما بعضلاته لا بعقله • وزعموا أنهم ردُّوا على الفقراء مانهبه الأغنياء وأخذوه بغير حقٍّ من فائض قيمة العمل • والواقع يشهد أنهم أفقرُوا الأغنياء ثم لم يُغنُوا الفقراء • وأنهم عَطَّلُوا طاقات الأذكياء القادرين ممن جمعوا الثروات بذكائهم وكفاحهم في ظل نظامٍ فِطْرِيٍّ يُقَرِّرُ الحوافز الشخصية ، ليعطوا الحاملين الذين أصبحوا في ظل نظامهم يعملون ولا أَمَلَ لهم في مستقبل أفضل ، أو حياةٍ أخرى أسعد • وأى ظُلْمَةٍ أحلك من حياةٍ شقية كادحة يهددها المرض والهرم ، ويزعجها توقع الكوارث من كل لون ، ثم لا يكون وراءها إلا الفناء والضياع ؟ لذلك اضطر الماركسيون آخر الأمر إلى التنازل عن كثير من غُلُوَّاتهم ، حتى اشتد الخلاف في ذلك بين فِرَقِهِم وورثَةِ مبادئهم • ووعد الاشتراكيون الناس بمجتمع سعيد • والواقع يشهد أن الحرمان الذى كان يعيشه المحرومون مع الرضا والتوادُّ والأمن خيرٌ من الكَفَاف الذى يعيشونه الآن مع الحقد والكَبْت والخوف • وزعموا أن الزكاة في الإسلام صَدَقَةٌ يستعلى الغنى فيها على الفقير ، وأن الاشتراكية قد أغنت الفقراء عن ذلك ، وجعلتُ رزقهم راتبا ثابتا ، هو حقُّهم في مال الدولة • وغاب عنهم ما يغيب عن كل من فقد نور الإيمان من أن الزكاة لم تشرع لملاء البطون وكساء الابدان ، وإن كان ذلك أثرا من آثارها وظاهرة من نتائجها ، ولكنها شرعت أولاً وقبل كل شيء لتزكية النفوس وتطهيرها - واسمها يدل على هذا الهدف النبيل ، فالزكاة لُغَةً هى الطهارة - ولاخراجها عما طُبِعَ عليه من الأثرة والشُّح • فغاية الاسلام رضا الله • ووسيلته إلى ذلك تنقية النفس لتصبح رَبَّانِيَّة خالصةً لله صالحةً للقاءه • وغاية الاشتراكية - ككل النظم المادية - غاية حيوانية ، تنحصر في إشباع البطون والشهوات •

أما التحررية اللبرالية فهي مبنية على حق الفرد في أن يعتقد ما يشاء ويقول ما يشاء ويفعل ما يشاء . وهي تحصر سلطات الدولة في حفظ الأمن وفي الدفاع ضد العدو ، وفي القضاء بين الناس في خصومة المتنازعين . والإسلام يُقرّ ذلك في حدود الشريعة ، ويطلق طاقات الناس العقلية فيما هي صالحة له من كشف أسرار الكون وتسخير نواميسه وطاقاته وعناصره لخير الناس وصالحهم . بل هو يدعوهم إلى ذلك . ويدعوهم معه لما هو خير منه ، وهو التدبر والتأمل فيما وراء ذلك كله من الدلالة على عظمة الخالق في كل صفاته الحسنى ، حتى تسكن النفس وتطمئن في انقيادها لمشيئته ونواميسه . ولكنها تجمع الناس في سلوكهم الفردى والجماعى على ما أمرت به الشريعة وما نهت عنه ، ولا تسمح بالخلاف أو الابتداع في ذلك . فتحمي المجتمع الإسلامى مما يتعرض له من خطأ التقدير وفساد التدبير في التمييز بين الحق والباطل والنافع والضار ، مما يبيّن أن الملكات البشرية في إمكانها المحدود غير صالحة له . وتحمى المجتمع الإسلامى كذلك من التفكك والتفسخ الذى تتعرض له المجتمعات اللبرالية نتيجة للخلاف والنزاع حول العقائد والمبادئ ، والتضارب في سلوك المختلفين عليها .

ذلك هو الإسلام في تميزه وتفردهِ ورَبَّانِيته (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ . وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ - الأنعام ١٥٣) .



موجة من الإلحاد ثم عودة إلى الإسلام

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..
كانت أزمة العصر التي تناولت الولاء السياسى ونُظُم الحكم تمتد لتغطى كل
نواحي الفكر والمجتمع والثقافة. وكان فى مقدمة ما امتدت اليه فاهتز يقين الناس
به - وشبابهم على وجه الخصوص - حقيقة الدين ، حتى أصبح الإلحاد سمة من سمات
التفلسف وعمق التفكير ، يُباهى به أصحابه ولا يتسترون ، ويتظاهر به الذين لا
يتصفون به كأنهم يفاخرون • وأصبح التدين مقرونا ببداية التفكير وبلادة العقل ،
يستخفى به ضعاف الإيمان فلا يظهره حتى لا يوصموا بالتخلف والرجعية
والخرف • وفى ظل هذه الموجة المخربة نُشرت مقالات جريئة فى الصحف بعد الحرب
العالمية الأولى لا يخفى أصحابها استخفافهم بالدين ، وظهرت كتب هزت المجتمع
بجراتها عليه ، ومثلُ كتاب (الشعر الجاهلى) لطلح حسين ، الذى استفز مشاعر
المسلمين ، حتى طالبوا بفصل مؤلفه من الجامعة ومحاكمته • ثم وقف الأمر عند
الاكتفاء بمصادرة الكتاب وجمع نسخه من الأسواق ، بمساندة الحزب السياسى الذى
كان المؤلف ينتمى إليه ، والذى كان يشغل أحد أعضائه البارزين وقتذاك منصبَ
مدير الجامعة •

يقول طه حسين فى أول كتابه ذاك ، واصفا أنصار الجديد الذين اختار مذهبهم
وفضله على مذهب أنصار القديم من المحافظين : « فقد خلق الله لهم عقولا تجد فى
الشك لذة وفى القلق والاضطراب رضا » • ويقرر أن أصحاب الجديد « قد ينتهون
إلى تغيير التاريخ أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ • وقد ينتهون إلى الشك فى أشياء
لم يكن يباح الشك فيها » • وكل ذلك عنده تطبيقٌ لمذهب ديكارت الذى فُتن به ،

على سوء فهمه له ، كما بيّنه محمد أحمد الغمراوي في كتابه (النقد التحليلي لكتاب « في الأدب الجاهلي ») • وتطبيق هذا المذهب كما توهمه هو أن نتجرد من شخصيتنا ومن كل مواردنا الفكرية والعقدية حين نبحث • وفي ذلك يقول ما نصه : « فلنجهد في أن ندرس الأدب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ، ولا مكترئين بنصر الاسلام أو النعى عليه ، ولا معنيين بالالماءة بينه وبين نتائج البحث العلمي والأدبي ، ولا وجليين حين ينتهي بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية ، أو تنفر منه الأهواء السياسية ، أو تكرهه العاطفة الدينية • فإذا نحن حررنا أنفسنا إلى هذا الحد فليس من شك في أننا سنصل ببحثنا العلمى إلى نتائج لم يصل إلى مثلها القدماء » • ومع مدّ هذه الموجة العاتية صدر كتاب على عبدالرازق (الإسلام وأصول الحكم) ، الذى حوكم بسببه أمام هيئة من كبار علماء الأزهر ، فأصدرت حكمها بإخراجه من زمرة علماء الأزهر • وترتب على الحكم عزله من وظيفة القضاء الشرعى التى كان يليها • أنكر على عبدالرازق في كتابه أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعا من الدين فى شىء ، ووصفها بأنها « خطط دنيوية صرفة لا شأن للدين بها • فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها • وإنما تركها لنا لندرج فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة » • وشنّع على عبدالرازق فى كتابه بالخلافة والخلفاء على امتداد التاريخ ، معتمدا فى أكثر ما نقل على المستشرقين ، الذين يُكثر من الإشارة إليهم على سبيل المباهاة ، مع توافر المصادر العربية الأصيلة ، التى لم يستنبط المستشرقون ما استنبطوه مما ساقتههم إليه الأهواء إلا منها ، بعد أن حرّفوا منها ما حرّفوا ، وبتروا منها ما بتروا ، وأسقطوا ما أسقطوا ، وأولوا ما أولوا • فهو يصف كل الزعامات التى وجدت فى ظل الإسلام ، ومن بينها خلافة الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، بأنها زعامة لا دينية • فهى عنده « ليست أقل ولا أكثر من الزعامة المدنية أو السياسية » • فبيعة أبى بكر فى زعمه « بيعة سياسية عليها كل طابع الدولة المحدثّة ، قامت كما تقوم كل الحكومات

على أساس القوة والسيف » • بل هو يقرر أن حركة الردّة كانت حركة سياسية لا شأن لها بالدين • ويذهب في غلوائه إلى حد العطف على هؤلاء الذين قتلتهم السياسة ، حسب زعمه ، باسم الدين ، حين يقول : « كم نشعر بظلمة التاريخ وظلمه كلما حاولنا أن نبحث جيدا فيما رواه التاريخ عن هؤلاء الذين خرجوا على أبى بكر فلقّبوا بالمرتدين ، وعن حروبهم تلك ، التى سموها حروب الردّة » •

ولنلاحظ بعد هذا أن الكاتبين كليهما - طه حسين وعلى عبدالرازق - اللذين صدر عنهما الكتابان فى عامين متتاليين (١٩٢٥ م ، ١٩٢٦ م) وهما أبرز ما أثار الرأى العام فى العشرينيات من هذا القرن الميلادى ، قد تلقيا دراستهما فى أكبر معهد إسلامى وهو الأزهر ، وأنهما ينتميان الى حزب سياسى واحد ، وهو حزب (الأحرار الدستوريين) • وواضح من اسم الحزب أنه يتعقب أثر أحزاب الأحرار أو اللبراليين فى أوروبا • وقد كان حزبه من الأحزاب البارزة فى إنجلترا وقتذاك • ورئيس الحزب المصرى ومؤسسة (محمد محمود باشا) ، تلقى دراسته العليا وتخرج فى جامعة أكسفورد •

ثم إن هذه الموجة التى تتباهى بالكفر والإلحاد ، وتراه مظهرا لحرية الفكر واستقلاله بالبحث بعيدا عن كل المؤثرات مهما كانت صفتها أو قداستها ، لم تلبث ان ضعفت ثم انحسرت فى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن الميلادى تحت تأثير ظروف سياسية واجتماعية ، أبرزها : جراءة البعثات التبشيرية المسيحية على اقتحام أحياء المسلمين ، حتى لقد بلغ من جراءة أحد هؤلاء المبشرين (وهو زويمر) أن دخل الأزهر يوما ليوزع نشراته التى تفيض بالطعن على الإسلام • ومن هذه الظروف السياسية ظهور خطر الحركة الصهيونية ، وتوالى الصدام بين المسلمين واليهود فى فلسطين منذ سنة ١٩٢٩ م ، وفظائع الاستعمارين الفرنسى والإيطالى فى سوريا وفى شمال إفريقيا ، باستشهاد عشرة آلاف شهيد فى مقاومة سوريا للاحتلال الفرنسى سنة ١٩٢٥ م ، وبم شروع الظهير البربري الذى حاول بعث القومية البربرية والتفريق بين العنصرين

البربري والعربي في مراكش ، وبإعدام البطل الشهيد عمر المختار في ليبيا سنة ١٩٣١ م الذي كان يقود الجهاد وهو في السبعين من عمره .
وفي أحداث سوريا يقول شوقي :

قم ناج (جَلَّقْ) • وانشُد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان
هذا الأديم كتاب لا كفاء له رثُ الصحناء باقٍ منه عنوان
الدين والوحي والأخلاق طائفة منه وسائره دنيا وبهتان
بنو أمية للأبناء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دأثوا
كانوا ملوكا سريرُ الشرق تحتهم فهل سألتَ سرير الغرب : ما كانوا ؟
مررتُ بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلَّى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرارٌ وعبدان
فلا الأذان أذانُ في منارته إذا تعالى ولا الآذان آذان
وفي استشهاد عمر المختار يقول :

ركزوا رفاتك في الرمال لواء يستنهض الوادى صباحَ مساء
يا ويجهم نصبوا منارا من دم يوجى إلى جيل الغد البغضاء
تلك الصحارى غمد كل مهتد أبلى فأحسن في العدو بلاء
وقبورُ موتى من شباب أمية وكهولهم لم يبرحوا أحياء
يا أيها الشعب القريب أسمعُ فأصوغُ في (عمر) الشهيد رثاء
أم أجمتُ فاك الخطوبُ وحرمتُ شفتيك حين تخاطبُ الإصغاء
ذهب الزعيم وأنت باقٍ خالد فانقذُ رجالك واختر الزعماء
وأرجُ شيوخك من تكاليف الوغى واحملُ على فتيانك الأعباء

في ظل هذه الأحداث ظهرت جماعات إسلامية استطاعت ان تستقطب عددا كبيرا من الشباب أبرزها جماعة الإخوان المسلمين • وفي ظل هذا التحول الجديد انعكس اتجاه التيار ، وأصبح الفكر الإسلامى والحماس الإسلامى وإحياء أجداد المسلمين

والدعوةُ إلى الإعداد للجهاد في سبيل استردادها بِدَعِ العصر • واستخفى الملاحدة الذين كانوا يدعون للإلحاد • عاد بعضهم عن انحرافه واعترف به وأعلن توبته ، كما فعل محمد حسين هيكل في صَدْر كتابه (في منزل الوحي) ، الذى كتبه بعد أداء فريضة الحج • ثم تتابعت كتبه الإسلامية • وسائر بعضهم الموجة الجديدة ، فأصدر كتباً في سير خلفاء المسلمين وأبطالهم كالعقاد • وناقى بعضهم هذه الحركة الجديدة كما فعل طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) الذى صدر سنة ١٩٣٣ م ، والذى قال في مقدمته :

« وأنا أعلم أن قوما سيضيعون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يُكبرون العقل ، ولا يثقون إلا به ، ولا يطمنون إلا إليه • وهم لذلك يضيعون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لا يُسيغها العقل ولا يرضاها .. وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء ، وأن للناس ملكاتٍ أخرى ليست أقل حاجة إلى الغذاء والرضى من العقل • وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا هى لم يطمئن إليها العقل ، ولم يَرْضَها المنطق ، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمى ، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميثلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ، مما يُحبب إليهم هذه الأخبار ويُرغبهم فيها ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس حين تَشَقُّ عليهم الحياة • وفرقٌ كبير بين من يتحدث بهذه الأخبار على أنها حقائق يُقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث ، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير ، صارفة عن بواعث الشر ، مُعينة على إنفاق الوقت ، واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش » •

والسلام عليكم ورحمة الله •

الدين والمكتشفات العلمية الحديثة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

كان اهتزاز اليقين في هذا الجيل أثرا من آثار الافتتان بالبحث التجريبي والانبهار بالآفاق الجديدة التى فتحتها هذا المنهج العلمي ولا يزال ، مما كان في عداد الأحلام • وترتب على ذلك دعوة تدعو الناس إلى رفض كل ما لا تثبته التجربة ، واعتبار كل العقائد الدينية التى تتصل بما غاب عن حواسنا أوها ما تعوق مسيرة البشرية فى الانطلاق إلى المعرفة • وبلغ هذا التيار الذى ينكر الإيمان بالغيب والتسليم بحدود الله - وهما أساس الدين - مداه حين ملأ الغرور بعض الناس فى السنوات الأخيرة ، بعد أن طافوا بمراكب الفضاء حول الأرض ، وبعد أن بلغوا بها القمر ، وطمحوا إلى بلوغ كواكب أبعد غورا فى أعماق الفضاء • وتزعزع إيمان بعض الضعاف وزاغت قلوبهم وطاشت عقولهم ، بين منكر للتجربة الواقعة وبين منكر للدين • ولو فكر هؤلاء وهؤلاء وتدبروا ما بين أيديهم لكان لهم فيما شاهدوا وشاهدون عيبر وعظات ، ولازادوا به إيماننا • فقصار النظر ممن تبطروهم النعمة وتطيش عقولهم بالقليل من المعرفة هم وحدهم الذين يضلون • أما المثبتون من المهتدين فهم يعرفون أن ميدان هذا الأسلوب التجريبي يختلف عن ميدان الدين ، لأنه محدود بالحدود التى تحد المعرفة البشرية ، وهى كثيرة • هى محدودة بحكم طاقة الحواس التى نستمد منها المعرفة • وعجز الحواس البشرية شئ مقرر تؤيده الدراسات التجريبية نفسها • فالعين البشرية مثلا ينحصر مدى إدراكها فيما بين الموجات الضوئية التى طولها ٠,٠٠٠٧ ، والموجات الضوئية التى طولها ٠,٠٠٠٤ ، من السنتيمتر ، وهى الموجات المحصورة بين اللون الأحمر واللون البنفسجي • وهى لا تدرك بعد ذلك شيئا مما فوق البنفسجي وما

تحت الأحمر • ومثل ذلك ثابت معروف بالتجربة في حاسة السمع وفي سائر الحواس • فالدين حين يتحدث عن مخلوقات ترانا من حيث لا نراها كالملائكة والجن يتحدث عن أشياء آمن بها المؤمنون قبل أن تكشف التجربة العلمية عن إمكان وجودها • ثم إن الأسلوب التجريبي والمعرفة البشرية كلها محدودة بالحيز الزمني الضئيل الذي نعيش فيه وندركه ، لا نعرف ما قبله ولا نعرف ما بعده • وهي محدودة بالحيز المكاني التافه الذي نحيط به ، لا نعرف ما وراءه من آفاق الفضاء ، بل في أعماق الأرض والبحار ، إلا حدساً ورجماً بالغيب • وبعض ما يستنتجونه في حدسهم أدعى للحيرة من الجهل به • فهم يقدرون أن بعض النجوم - أركتورس مثلاً - تبعد عنا ثلاثين سنة ضوئية • والسنة الضوئية كما هو معروف هي المسافة التي يحتاج الضوء - على سرعته اللامحة الخاطفة - لكي يقطعها إلى سنة كاملة • ومعنى هذا أن ذلك النجم الذي نراه الآن لا نراه كما هو الآن ، ولكننا نراه كما كان منذ ثلاثين سنة • لأن الشعاع الضوئي الذي يصل إلى أبصارنا الآن هو الذي انبعث منه منذ ثلاثين سنة • ومعنى ذلك أن من الجائز أن يكون هذا النجم الذي نراه الآن ، غير موجود الآن في حقيقة الأمر • ويقدر الفلكيون أن بعض المجرات تبعد عنا ملايين من السنين الضوئية ومئات الملايين • أليس هذا العلم أدعى إلى الحيرة من الجهل وأدنى أن يكون تعبيراً عن عجزنا وقصورنا وضآلة شأننا ؟ ثم ، أليس يدل هذا ومثله - وهو كثير في الدراسات الفلكية بخاصة - على ضآلة مدى الدراسات التجريبية من ناحية ، وعلى صعوبة إدراك حقائق الأشياء الأصيلة من ناحية أخرى ، وعلى أن المنهج التجريبي إن استطاع أن يوصلنا إلى تسخير بعض الظواهر والطاقات وتطويعها لمصلحتنا ، فهو لا يوصلنا إلى حقائق هذه الظواهر والطاقات ؟

أنا لست عالم فلك • ولكني أنقل ما أنقله عن متخصصين في هذا الميدان : هما الدكتور أحمد زكي ولنكولن بارت في كتابيهما (مع الله في السماء) و (العالم واينشتين) •

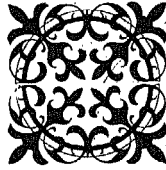
المثبتون من المؤمنين يدركون من ذلك كله المعنى الكامل الحقيقي لقول الله تبارك وتعالى (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، ويزدادون يقيناً بما ظهر وبما لا يزال مستورا مما عسى أن تكشف عنه التجربة • ويستيقنون بذلك كله ضالة شأنهم وشأن أرضهم كلها ، وسعة ملك الله الذى لا تبلغ الأرض والقمر والمجموعة الشمسية بأسرها فيه شيئا • ويدركون به عجزهم وقصورهم وغرورهم ، فى عبثهم العابت ، إذ بلغوا القمر قبل أن يكشفوا أعماق الأرض والبحار تحت أقدامهم • وتناولوا إلى السماء قبل أن يكشفوا علاجا يردّ أذى أضعف خلق الله ، من جراثيم الأمراض التى لا تدركها العيون المجردة فى أجسامهم كالأنفلونزا والزكام • ثم هم يوقنون أن الله سبحانه وتعالى قاهرٌ فوق عباده ، قهرهم بالمرض وبالموت وبما يُفجئون به مما تضيق به حيلتهم وتقصّر عن دفعه طاقاتهم ، كالعواصف والزلازل والبراكين والأوبئة • وأنه لا مفرّ منه ولا مهَرَّب ، إليه يُرجعون طائعين أو كارهين •

بل إن العجز والقصور يتجاوز حدود العلوم التجريبية إلى العلوم النظرية التى تعتمد على الفكر المجرد • ومن أظهر الأمثلة على ذلك أن القسمة فى منطق العقل البشرى لا تقبل إلا أن يكون العالم محدودا أو غير محدود • ولا يستطيع العقل أن يتصور وجود قسم ثالث يخرج عن هذين القسمين ، ثم هو لا يستطيع فى الوقت نفسه أن يتصور أيّا من القسمين ، زماناً أو مكاناً • ذلك لأنه لا يستطيع أن يتصور حدودا للعالم - بدءاً أو نهايةً - ليس وراءها شيء على الإطلاق ، ولو كان هذا الشيء فراغا زمانيا أو مكانيا • ولا يستطيع أن يتصور شيئا لا حدود له ، ولا أولَ له ولا آخر • ومن هذا المثل الصغير - وغيره كثير - يتبين عجز العقل البشري • وذلك هو قولُ الله تبارك وتعالى فيما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم (فارجع البصر هل ترى من فُطُور) والفُطْر الشق والصدع ، والمقصود هل ترى من خَلَلٍ أو وهن (ثم أرجع البصر كرّتين ينقلبُ إليك البصرُ خاسئا وهو حَسِير) وخسأ البصر (كقطع) وحسّر البعير (كنصر) كُلُّ وأعيا • فنظرة الإنسان المتدبرة فى الكون ترشده أولَ الأمر إلى

وَحَدَّةَ نظامه ووحداية خالقه سبحانه وتعالى وبالغ قدرته وحكمته • ولكنه إن حاول الذهاب في التصور إلى أبعد أعماقه وصل إلى نقطة تقف عندها موجات فكره ويرتد عندها شعاع بصره عاجزا كليلًا •

ذلك هو السبب في وصف النبوة بأنها رحمة للعالمين ، في مثل قوله تعالى يخاطب رسوله الكريم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ، لأنه حين علم ضعف العقل وعجزه - وهو العليم الحكيم ، الرحمن الرحيم ، أرشد خَلَقَهُ الضعفاء فيما هو خارج عن حدود تفكيرهم إلى ما فيه خيرهم ، وأمرهم بلزومه والانقياد له - سبحانه - فيه ، سواء أدركوا وجه المصلحة والخير فيه أم لم يدركوه •

على أنه ليس من مقتضى كلامنا هذا أن يلغى الإنسان عقله ويهمله ، أو أن يترك نفسه كالريشة في مهبّ الرياح • بل مقتضاه أن لا يستعمل عقله في غير ما هو صالح له بطبيعته وبُحْكَمِ فطرته التي فطره الله عليها ، وأن لا يخرج به عن حدود طاقته ، فيكون كالذي يريد أن يسمع بعينه أو أن يُبصر بأذنه ، أو كالذي يريد أن يشم بأنفه ، ما ليس في طاقة أنف الإنسان أن تدركه ولكن أنف الكلب تدركه ، أو يريد أن يبصر في الظلام ما ليس في طاقة العين البشرية أن تدركه ولكن عين غيره من الحيوان تدركه •



الإلحاد والمنطق السليم

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد ..

كانت بعض الصحف تذهب مذهبا خبيثا ماكرا فتقدم آراء غريبة شاذة ، لا تعرض لها بتكذيب أو تصديق ، ولكنها تقدمها في أسلوب يجذب كثيرا من الأغرار • فمن ذلك مثلاً مقال نشرته إحدى المجلات (الهلال) سنة ١٩٣١ م عنوانه (العلم والإيمان ، وديانة « الإنسانية » الجديدة) • يروى فيه تحرير المجلة أن هذه الديانة الجديدة قد انتشرت في أمريكا ، وأن أصحابها يقولون إن مسألة وجود الله أو عدم وجوده ليست من المسائل الجوهرية • لأنه إذا عمل الإنسان ما هو صالح في هذا العالم فقد فعل ما هو مطلوب منه • سواء أكان له روح خالدة أو لم تكن • وتقول المجلة بلسان صاحب هذه الديانة :

« لو أن جميع الناس يعتقدون كما اعتقدنا أن هذا هو الفردوس الوحيد الذى ليس بعده فردوس آخر لوجهوا كل قواهم إلى تحسينه ليصبح فردوسا حقيقيا بكل معنى الكلمة • أمّا وهم يؤمنون بوجود فردوس آخر أفضل ، وأن الانسان نزيل فان على هذه الأرض ، فهم يحرضون كل واحد على احتقار الحياة ، وعلى تصوّرها بأبشع صورها ، حتى تصبح جحما لا يطاق » •

ومن ذلك قول سامى الجريديني في بعض مقالاته بمجلة (الهلال) :

« ميزة المدنية الغربية النظام والحرية • النظام المستمد من القانون أو من الشريعة ، والخضوع لهذا النظام أو لهذه الشريعة ، باعتبار أنها تمثل إرادة الهيئة الاجتماعية وضميرها • باعتبار أن الخضوع لها مصلحة للفرد والجمعية • ويفقد النظام

مزيتها ، وتفقد الشريعة قيمتها ، إذا كان الخضوع لها على اعتبار أنها إرادة قوّة لا تُردّ ، أرضية كانت هذه القوة أوساوية • فالشريعة ، وهى ما يعبرون عنه بكلمة law أو Loi ليست مشيئة القوَى ، بل محاولة الوصول إلى العدل • ولذا كان من أركان بنيانها أن تنشأ وتنمو وتتكيف وتتغير ، حتى تبلغ أسمى مطامح الإنسان الأدبية » •

ثم يقول إن الحضارة الغربية كانت فى أول أمرها « مثل الحضارات الشرقية ، تقدّس الشريعة على أنها إرادة واحدٍ قهّار ، لا على أنها عدل • وعلى أنها لا تتغير إلا بمشيئة السيد • وما مشيئته الا حاجةٌ فى نفسه إن كان أرضيا ، أو أحجية لا تُفسّر إن كان سهاويا » •

ومثل هذا التفكير واضح السذاجة عند أدنى فِكْر ، وإن كان فى خطورته قادرا على خداع الأغرار • ذلك لأن الناس يكذّون بدافع من الطمع فى مكافأة مادية أو معنوية لقاء ما يبذلون من جهد • ثم إن الأمل فى هذه المكافأة أو فى هذه الثمرة المرجوة هو الذى يهون عليهم مشقة الكدّ ومعاناة ما يلقون فيه من أهوال ، وما يصادفهم فى حياتهم الدنيا من مصائب وكوارث لا سلطان لهم عليها • والدين وحده هو الذى يقدم الحافز والأمل • والقانون فى أسمى صور العدل ، إن كف الناس بعضهم عن بعض ، عاجزٌ عن أن يكف عنهم غوائل المرض والشيخوخة والحوادث المفاجئة والكوارث الكونية • والقانون وحده ، مهما يُظنّ به العدل ، لا سلطان له على قلوب الناس الذين يتنافسون فى تقاتلهم على تحصيل أقصى ما يمكن تحصيله من أسباب المتع ، طالما أن هذه الدنيا هى المجال الوحيد لتحصيل ما يمكن تحصيله منها • ولا شىء بعد ذلك إلا الفناء والضياع •

ولو لم يكن الدين حقيقة قائمة لوجب على الناس أن يوجودوه ، لأنه ضرورة اجتماعية لا تستقر الحياة ولا تطمئن إلا به • فهو ، كما يقول مصطفى صادق الرافعى « حقيقة الخلق الاجتماعى فى الأمة • وهو الذى يجعل القلوب كلّها طبقة واحدة على

اختلاف المظاهر الاجتماعية ، عاليةً ونازلةً وما بينهما • فهو بذلك الضمير القانوني للشعب • وبه لا غيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية • وفيه ، لا في سواه ، معنى إنسانية القلب » •

« ولولا التدين بالشرعية لما استقامت الطاعة للقانون في النفس • ولولا الطاعة النفسية للقوانين لما انتظمت أمة • فليس عمل الدين إلا تحديد مكان الحسى في فضائل الحياة ، وتعيين تبعته في حقوقها وواجباتها ، وجعل ذلك كله نظاماً مستقراً فيه لا يتغير ، ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل ، ودائماً نحو الأكمل » •

« وكل أمة ضعف الدين فيها اختلت هندستها الاجتماعية وماج بعضها في بعض • فإن من دقيق الحكمة في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية في هذه الأرض • وذلك لتنظيم الغايات الأرضية في الناس ، فلا يأكل بعضهم بعضاً • فيغتني الغني وهو آمن ، ويفتقر الفقير وهو قانع ، ويكون ثواب الأعلی في أن يعود على الأسفل بالمبرة ، وثواب الأسفل في أن يصبر على ترك الأعلی في منزلته • ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة ، التي لا يكبر عليها الكبير ، ولا يصغر عنها الصغير ، وهى : الحق ، والصلاح ، والخير ، والتعاون على البر والتقوى » •

إن غاية ما يطمح إليه الناس فيما يستنون من قوانين وما يتتبعون من مذاهب هو أن يضمّنوا لأنفسهم حياة أرضية أغنى ، ولا أقول أسعد • نعم ، أغنى بمتعة الجسد من طعام وكساء وشهوات • وقد لا تكون أسعد • بل هى على التحقيق والتمحيص أشقى وأتعس ، لأن صاحبها لا يطمئن ولا يرضى ، ولأن الناس يفقدون فيها التواد والتراحم والتواصل ، وبها وحدها تهون مشاق الحياة • ويصبح الواحد منهم تفجأه الكارثة فلا يجد معزياً ، وتغمره النعمة فلا يجد مهتئاً ، وتحيط به المتاعب فلا يجد مُنجداً أو مُعيناً • يعيش وحده حياة محدودةً بين ناسٍ (يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) • ثم ماذا ؟ يقول عالمهم : لا أدري • وما هذا بعلم • إنه نفى للعلم •

وعلى الذى لا يعلم أن يلتمس العلم عند من يعلم • ولا سبيل إلى العلم هنا إلا بالوحي • والإعراض عنه مكابرة يحرم المكابر نفسه فيها من الانتفاع بخير أتيح له ومعرفة سبقت إليه •

إن أحداً لا يستطيع أن يقيم الدليل على أن هذه الحياة ليس وراءها إلا الفناء المطلق • وغاية ما يبلغه الملحد أن يقول إنه لا يدري ، أو أنه لا يعرف وجوداً وراء هذا الوجود الأرضي ، أو حياة وراء هذه الحياة الدنيا • وبعضهم يقول : لماذا نفكر فيما وراء هذه الحياة ؟ ليكن وراءها ما يكون • ولنحصر جهدنا في إسعاد أنفسنا في هذه الحياة • وليتهم يفعلون • فحتى هذا الهدف الداني القريب لا يبلغونه • والدين أوضح من كل فلسفاتهم ومذاهبهم هدفاً وأسلوباً في بلوغه وتحقيقه ، بتركيز النفس ، والسمو بها على الواقع ، حتى تصبح مسيطرة على الجسد وشهواته ، والدنيا ومطامعها ، لا يقهرها شيء منها ولا يذلها ولا يُشقيها ، لأنها تسمو على الأحزان ، ولا يعذبها الحرمان •

ومع ذلك فنحن نقول لهؤلاء الذين يرفضون التفكير فيما وراء الحياة : لماذا تُعلمون الناشء من الصبيان أن يفكر في مستقبله ، وتنصحونه بالإعراض عما تدعوه إليه نفسه من اللعب واللهو والاستمتاع بدواعي الشباب ، ضماناً لمستقبل أفضل ؟ وأنتم تعلمون أن هذا المستقبل الأفضل قصير محدود مهمل طال ؟ ولماذا تكذبون في شبابكم من أجل شيخوخة أفضل قد لا تبلغونها ؟ ولماذا تدخرون المال وتحرمون أنفسكم من الاستمتاع به احتياطاً لمستقبل قد لا يجيء ؟ ولماذا تصفون المعرض عن ذلك كله بالحماقة وقصر النظر ؟ أليس الذى يبيع حاضراً راهناً محدوداً بمستقبل مديد لا يحّد امتداده الخيال أحق منه وأقصر نظراً ؟ أرايت الرجل الذى ضيع صباه وشبابه ، حين يرى أقرانه ممن أحسنوا إعداد أنفسهم في الصبا والشباب ، فجئوا ثمرة ذلك حياةً أنعم ومستقبلاً أفضل ؟ فحسرة الذى ضيع حياته الدنيا أكبر وأعظم ، حين يرى سواه ممن جدّ فيها وأحسن إعداد نفسه لما وراءها •

ولماذا تُخَطِّط الدول للمستقبل البعيد ولا تقنع بالحاضر الراهن ؟ ولماذا تُحَرِّم شعوبها وتدعوهم إلى أن يشدّوا الأحزمة على البطون من أجل مستقبل أفضل ؟ مع ما قد يتعرّضون له من مفاجآت تفسد تدبيرهم في هذا المستقبل الذى يَخْطِّطون له ؟ فالتخطيط للمستقبل الأبقى والأدوم أولى وأحرى • والإعداد لما وراء هذه الحياة الدنيا من حياة لا تتعرض للمفاجآت المخيِّبة للآمال أحقُّ بالعناية والتدبير •

من ذلك يبدو بوضوح أن الدعوة إلى إنكار الدين باطلة من وجهين :

أولها هى أنها دعوة سلبية لا برهان لصاحبها على صِحَّتْها ، وثانيها أنها تستند إلى منطق يناقض منطق دعائها فى الحياة ، وفى تخطيطهم للمستقبل ، إلى أبعد ما يتخيلونه •



استحضار أرواح الموتى

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

بلغ من افتتان الغرب بالمنهج التجريبي في المعرفة أنهم طمحو إلى إخضاع عالم الغيب للتجريب • وكان من أبرز ما ظهر في هذا الميدان إدخال عالم الروح في ميدان التجريب • وابتدعوا لذلك علما سموه (الروحية) أو Spiritualism ، نقلناه عنهم فيما نَقُشُ ونَحْطِب •

ودعوتهم هذه تنتحل اسم العلم ، وتزعم أنها تجري التجارب على أرواح من ماتوا ، وتدعى أن هذا هو سبيلها إلى ردّ الناس عن تيار المادية الطاغية • وهذا نفسه جميل ولا بأس به ، لولا أن باب الكذب والدجل والخداع لا يتسع في شيء مما ينتحل اسم العلم كما يتسع في هذه الدعوى وتجاربها ، ولولا أن هذه الدعوة على ما يبدو من ظاهرها الجميل البراق ، الذي يدعو إلى الإيمان بالله ، تريد أن تكون دينا جديدا يُعفى أتباعه من كل الصلوات والعبادات والشعائر ، ولا يجعل أهمية لغير العمل الصالح ، بحسب ما يفهمه دعائها ويزعمونه • فهم إذن ينتفون إلى الله الوسيلة بمنهج جديدة وبشعائر مستحدثة تخالف شعائر كل الأديان • وليس الدين إلا منهجا من المناهج يتوسل به العبد إلى ربه • فهم إذن أصحاب منهج جديد في ربط العباد بربههم وخالقهم ، أى أنهم أصحاب دين جديد •

والدعوة بعد ذلك ليست حرباً على المادية كما يزعم أصحابها ، ولكنها إغراق فيها وإمعان في التمسك بها ، لأنها لا تقنع بإخضاع المحسوسات للمنهج التجريبي • ولكنها تتناول إلى ما وراءها من عالم الغيب تريد أن تخضعه للتجربة وتنكر كل ما لا يمكن ثبوته من هذا الطريق •

وأكثر من ينخدعون بهذه الدعوة هم الذين أصيبوا بصدمة عجزوا عن احتلالها ،
من موت ابن أو زوج أو زوجة أو عزيز • ولذلك بدأ انتشار الدعوة في أوروبا في
أعقاب الحرب العالمية الأولى • ودخل فيها عدد من العلماء منهم سير أو ليفر لودج ،
الذى فقد ابنه في هذه الحرب • وانتقلت الدعوة إلى مصر عن طريق (أحمد فهمى
أبو الخير) أستاذ العلوم الذى فقد ابنه الوحيد بعد أن حُرِمَ الإنجاب سنين طويلة •
فترجم عددا من الكتب الإنجليزية المؤلفة في هذا الموضوع ، كان أولها (على حافة
العالم الأثيرى) (On the Edge of the Etheric) لمؤلفه آرثر فندلاى
(J. Arther Findlay) ثم أنشأ أول دائرة عربية لتحضير الأرواح وأصدر
باسمها مجلة شهرية سماها (عالم الروح) • وانتشرت الدعوة انتشارا واسعا بعد
الحرب العالمية الثانية في مصر ثم في كثير من البلاد العربية والإسلامية •

ومن أكثر ما ينخدع به الناس الذين تستهويهم هذه الدعوة أمران : أولهما الأجهزة
العلمية التى تملأ معامل تحضير الأرواح ، وثانيهما الأساء الضخمة البارزة لعدد كبير
من المشتغلين بالعلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية ، الذين انضموا للدعوة وشاركوا
في بحوثها •

أما الأجهزة العلمية فالنغرات التى تسمح بالغش والخداع فيها كثيرة • ولكنها
تحفَى على غير المدققين • وتعتمد فيها نتائج البحث اعتمادا كبيرا على شخص
الوسيط • وهذا كلام يحمل شديد الإيجاز يحتاج إلى بيان • ولكن الوقت الذى يسمح
به البرنامج لا يحتمل التفصيل الدقيق • لذلك أحيل من يطلب تفصيلا أدق وأطول
إلى كتابي عن (الروحية الحديثة) •

أما عن العلماء الذين دخلوا في الدعوة وأصدروا فيها كتباً أو سمحت لهم الجامعات
بإجراء بعض التجارب في معاملها فالأمر يحتاج إلى تجلية شبهة ينخدع بها كثير من
الناس ، ويستغلها دعاة الروحية أوسع استغلال • فحقيقة الأمر في الظواهر الكونية

التي اكتشفها الإنسان واستغلها حتى الآن والتي سوف يكتشفها ويستغلها من بعد ،
أنها لا تعدو أن تكون معارف جزئية يفيد كل كشف منها معرفة حقيقة جزئية على
حدة • ولكنها لا تفيد إدراك الكل الذي ينتج عن ربط ما بين الأجزاء والوحدات في
كل الميادين ، ما عُرف منها وما لم يُعَرَف • ولذلك كانت براعة كل واحد من
الباحثين في هذه الفروع أو المكتشفين لبعض أسرارها محصورة في دائرة لا يتجاوزها
ولا يتعداها من الميادين • وقد يكون بعد ذلك متوسط الخبرة أو ضعفها فيما عداها من
شئون • بل المعروف أن بين المشهورين من المشتغلين بالعلوم التجريبية كثيرا ممن
تغلب عليهم الغفلة والسذاجة ، ونجوز عليهم الحيلة والخداع بأيسر سبيل ، لطول
انطوائهم على أنفسهم وانكبابهم على الدائرة الضيقة التي حصروا فيها أنفسهم ، لا
يحولون عنها انتباههم ، مما يعزلهم عن الناس ويُضعف خبرتهم بالحياة ويجعل كل
واحد منهم أقرب إلى الصانع الماهر منه إلى العالم المحيط • ولكن الغرب المفتون
بالمادة وبدراساتها التجريبية والمحتقرا لما عداها هو الذي ساهم Scientists واشتق
لهم هذا الاسم من الكلمة اللاتينية التي تدل على المعرفة وهي Sciens ، وجَريئنا نحن
من بعدُ على هذه التسمية فترجنا الاصطلاح إلى (علماء) • وقد زعم أحد المنتسبين
إلى هذه الدعوى أنهم هم المقصودون بقوله تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ
الْعُلَمَاءُ) • ومن الواضح أن هذه الدراسات والحِرَفَ التجريبية ليست هي العِلْمَ
المقصود ، لأن بين المشتغلين بها كثيرا من الملاحدة والماديين ، ولأن أصحابها لا يبرءون
من الأهواء • فليس هناك ما يمنع من أن يضعوا أنفسهم في خدمة إحدى الدعوات
الهدامة ، ما داموا قد قبلوا ولا يزالون يقبلون ، أن يضعوا أنفسهم في خدمة الوحوش
والطغاة من صانعي الحروب والفتن ومستعبدى الشعوب ومزوري الحقائق ومروّجي
الأباطيل • فهم في خدمة من يُغْدِقُ عليهم ، ثم يحبسهم على ما يريد وما يدبره ،
من وراء أبوابٍ مُغلّقة ، يعملون في داخلها كما تعمل دودة الحرير • وإنما العلم المقصود
بقول الله تعالى هو علم الحق ، علم الذين يتقون الله فيهديهم سبلهم ويملاً أبصارهم

وبصائرهم بالنور • ولكن داعية الروحانيين المسكين يريد أن يفسر القرآن العربي بمفاهيم أوربية ، بل بمفاهيم صهيونية •

وقد تشعبت هذه الدعوة أو الدعوى ، فأصبحت لها فروع متعددة ، وأصبح لوسطائها تخصصات معروفة • فمن فروعها فرع لعلاج الأمراض المستعصية ، يزعمون أن بعض المشتغلين بالطب من الموتى هم الذين يقومون عليه • ومن فروعها فرع لما يسمونه (الإرشاد) تقوم فيه الروح المزعومة المسيطرة على الدائرة بتقديم المواعظ ، والإرشاد إلى ما يكون وما يجزئ وراء الموت • وكل ما يقدمه هذا الفرع من الروحية من بيان يناقض الإسلام أشد المناقضة ، ويلتقى مع أهداف الصهيونية العالمية بأجهزتها المتعددة كالماسونية والتسلح الخلقى وشهود يهوه . فالإسلام عندهم ليس خاتم الرسالات • والوحي عندهم دائم لا ينقطع ، كان ولا يزال وسيبقى • والرسول والأنبياء وسطاء ، لا يزيدون عن الوسطاء الذين يستخدمونهم في اجتماعاتهم لمناجاة الأرواح المزعومة • ولا يتسع الوقت لتقديم ما لدى من النصوص الصريحة التي تشهد بذلك وتثبت إثباتا قاطعا • ولكنني أجمل الكلام فأقول إن الروحية في زعم أصحابها وبصريح أقوالهم « أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله - مجلة الروح العدد ١٢٧) وهم يقدمون ، كما يقول الدكتور على عبدالجليل راضى الأستاذ بكلية العلوم « طريقة جديدة للحياة ، ويعطوننا فكرة جديدة عن الله ومشيتته عالم الروح العدد ١٢٦ » • ويُعفى هذا الدين الجديد أتباعه من كل العبادات • وتنحصر طقوسه وفرائضه « في تدريب الناس على تركيز القوة الروحية - عالم الروح العدد ١٢٧ » • ويقول محمد فريد وجدي في سلسلة من المقالات نشرها في مجلة (المقتطف) سنة ١٩٢٠ م - وصاحب المقتطف على ما هو معروف من كبار الماسون • ومحمد فريد وجدي معدود عند بعض الناس من أصحاب الاتجاه الإسلامى - يقول على لسان أحد الأرواح المزعومة التى يناجونها وتناجيهم فى اجتماعاتهم الروحية : « نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون من قبلنا •

غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم • فالهنا هو إلههم • إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل صفات بشرية وأكثر صفات إلهية » •

وفي تعاليمهم خلط وخبط وتناقض كثير • فهم يمجّدون الشيعوية في الوقت الذي يدعون فيه إلى تنمية القوى الروحية • وهم يمجّدون الوثنيين من الفراعنة والهنود الحمر • وينسبون إليهم أكثر من يسمونهم (الأرواح الحارسة) في جلساتهم • وهم يزعمون أن بعض أرواح الموتى تقوم بعلاج الضالين والمرضى من الأحياء ، وفي الوقت نفسه يزعمون أنهم يرشدون في دوائهم بعض الضالين من أرواح الذين فارقوا الحياة • وهم يقدمون طائفة من المزاعم والأوهام يسودها الخلط عما وراء الموت ، تختلف باختلاف الدوائر التي تصدر عنها ، والأرواح المزعومة التي تُنسب إليها • وتزعم بعض دوائهم أن التواصل سيزداد بين الأحياء والأموات حتى يتم ويصبح عاماً • وعند ذلك يتحقق السلام والسعادة • وذلك عندهم هو الجنة • وفي خلال ذلك تتطهر أرواح الكفار والمنحرفين والمُذنبين من خلال ما يعانون من آلام التوبة والندم • وذلك عندهم هو كل العذاب ، الذي تقدم الأديان صوراً رمزية منه فيما تسميه (جهنم) • وهم يزعمون أن باب التوبة لا يغلق بالموت ، وأن فرصته متاحة للمجرمين وللخطائين بعد الموت • وهم يهدمون الخلق بنفي الاختيار والقول بالجبّر ، حين يزعمون أن كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم وهم مسلوبو الإرادة تحت سيطرة بعض الأرواح الشريرة • وذلك ما يسمونه (المسّ الروحي) • وأخطر ما في الأمر أن المسلمين منهم يؤيدون ذلك كله بنصوص ملفقة من القرآن والحديث وسير الصالحين ، بعد تحريفها وإساءة تأويلها • ولذلك أرى أن أقدم في الحلقة القادمة من هذه الأحاديث صورة عن الحياة الأخرى مستمدة من آيات القرآن الكريم • والسلام عليكم ورحمة الله •

الحياة الأخرى في القرآن الكريم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

سأحاول في حديثي هذا أن أستنبط من كتاب الله صورة لما وراء الموت ، كما رسمها الإسلام من طريق الوحي المنزل على خاتم رسل الله ، محمد بن عبد الله ، من عند علام الغيوب ، الذى يَعْلَم ، ولا يَعْلَم مَنْ سِوَاهُ ، ما كان وما هو كائن وما سيكون • أستنبط هذه الصورة ، لِيَعْرِضَ عليها الناسُ كُلٌّ ما يَرِدُ عليهم من مزاعم المفسدين والمضللين ، من الروحيين وغير الروحيين ، على اختلاف نحلهم وأهوائهم •

الأحياء والأموات وكل من في السماوات والأرض من إنس وجن ينتظرون يوماً وصفه مالك الملك سبحانه بقوله : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ - النحل ٨٧) • ذلك يومُ الآخرة ، الذى أنذر الله سبحانه وتعالى عباده هَوْلَهُ في مواضع كثيرة من كتابه العزيز ، مثل : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ • إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ • يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ • وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا • وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ - الحج ١) • يومئذ تندثر السماوات والأرض ، وَيُطَوَّى الكون طيًّا ، أرضه وسماؤه ، وكواكبه وأجرامه • وتفنى المادة فتعود إلى مِثْلِ ما كانت قبل خَلْقِ السماوات والأرض (ويسألونك عن الجبال ، فقل يَنْسِفُها رَبى نَسْفًا ، فيذرها قاعاً صَفْصَفًا ، لا ترى فيها عِوَجاً ولا أَمْتًا - طه ١٠٦ و ١٠٧) (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ، وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ • وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا • وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ - الحاقة ١٣ - ١٧) (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ ، وَإِذَا الْبِحَارُ

فُجِرَتْ ، وإذا القبورُ بُعِثَتْ ، عَلِمَتْ نفسٌ ما قَدِمَتْ وأَخَرَتْ - الانفطار (١ - ٥)
(يومَ نطوى السماءَ كَطِيِّ السَّجِلِ لِلْكِتَابِ • كما بدأنا أولَ خَلْقٍ نُعيدُه • وعُدًّا علينا
إنَّا كنا فاعلين - الأنبياء ١٠٤)

ذلك يومٌ أخفى الله علمه عن خَلْقِه ، لا يعلمه الأحياء ولا الأموات ، ولا الجن ولا
الإنس ، إلا ما شاء الله (يسألونك عن الساعة أيا نُرْسَاهَا • قل إنما عِلْمُهَا عند
ربِّي • لا يُجَلِّيها لوقتها إلا هو • ثَقُلَتْ في السموات والأرض • لا تأتِيكم إلا بَغْتَةً •
يسألونك كأنك حَفِيٌّ عنها • قل إنما عِلْمُهَا عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون -
الأعراف ١٨٧)

(بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ - الأنبياء ٤٠) •
ويَظَلُّ خَلْقُ الله بعد النفخة الأولى إلى ما شاء الله ، حتى يَبْعَثَهُمْ من جديد يومَ
القيامة • (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَقِقَ من في السموات والأرض إلا مَنْ شَاءَ الله • ثم
نُفِخَ فيه أُخْرَى فإذا هم قِيَامٌ يَنْظُرُونَ • وَأَشْرَقَتِ الأرضُ بِشُورِ رَبِّهَا • وَوُضِعَ
الْكِتَابُ • وَجِيَءَ بالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • وَوُفِّيَتْ
كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، وهو أَعْلَمُ بما يفعلون - الزمر ٦٨ إلى ٧٠) (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فإذا هم من الأَجْدَاثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ • قالوا يا ويلنا • مَنْ بَعَثَنَا من مَرْقَدِنَا • هذا
ما وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلُونَ - يس ٥١ ، ٥٢) (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتَا •
يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا • وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا • وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا - النبا ١٧ إلى ١٩) • ذلك يومُ الْحِسَابِ (يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ
الأرضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لَهِى الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ • وترى المجرمين يومئذٍ مُّقَرَّنِينَ في
الأَصْفَادِ ، سَرَّابِلُهُمْ من قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ • لِيَجْزِيََ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ
مَا كَسَبَتْ • إن الله سريعُ الْحِسَابِ - إبراهيم ٤٨ إلى ٥٠) •

والله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم كم ينقضي من الزمان بين النفختين •
فذلك حينٌ من الدهر يفنى فيه الزمان بالنسبة لخلق الله (ويومَ تقوم الساعةُ يُقسَمُ

المجرمون مألَبُوا غَيْرَ سَاعَةٍ • كذلك كانوا يُؤَفَّكَونَ • وقال الذين أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ • فْهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ • وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ - الروم ٥٥ ، ٥٦) (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْلِهِ وَتَذُنُونَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا - الإسراء ٥٢) (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ - الأحقاف ٣٥) (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ زُرْقًا يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا • نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ، إِذْ يَقُولُ أَثْلُكُمُ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا - طه ١٠٣ ، ١٠٤) •

ذلك كله واقع لا محالة (الله لا إله إلا هو لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ • وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا - النساء ٨٧) فمن جحدته وشك فيه ، اعتدأ على مَزَاحِمِ إخوان الشياطين مَن يسمون أنفسهم الروحيين وتأولوا تهمة فأولئك هم الخاسرون (وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ • يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا • وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ • أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُسَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ • الشورى ١٧ ، ١٨) •

يومئذ يعرض الذين يعارضون علم الله بنجوى شرار خلقه وجهالهم من الجن البنان ، ويعرفون أن شركاءهم وأصحاب نجواهم قد غرّروا بهم حين أملوا عليهم ما أملوا ، مما رَكَنُوا إِلَى تَصْدِيقِهِ ، ثم نصبوا أنفسهم أعوانا للكفر والضلال ينشرون قائلته بين الناس • (ويومَ يحشرهم جميعا • يامعشرَ الجن قد استكثرتم من الإنس • وقال أولياؤهم من الإنس ربَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا • قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ • إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ - الأنعام ١٢٨) • (وكذلك جعلنا لكل نبيٍّ عدوًّا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا • ولو شاء ربك ما فعلوه • فذرْهُمْ وما يفترُونَ • وَلَتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ ، وليقتروا ما هم مقتربون - الأنعام ١١٢ ، ١١٣) •

ولا ينبغي أن يغيب عن بال الناس أن إطلاق الاتصال بالموتى وجعله في متناول كل إنسان ، والاستعانة بهم في علاج مرضانا وفي شئون دينانا المختلفة ، إفساداً للحياة التي يقوم بعض عمرانها على التنافس واستباق الخيرات ، وعلى المحاولة المتصلة الدائبة المتكررة في سبيل التفوق وفي التغلب على الصعاب والانتصار على مصادر التعب والقلق ، ومن بينها المرض • وهو كذلك ، إبطال للحكمة في خلق الموت والحياة ، وما قدّر الله سبحانه وتعالى وقضى من إقامة الحجاب بينهما لحكمة يعلمها ، تنتظم بها حياتنا في الدنيا وفي الآخرة •

ولا ينبغي أن يغيب عن بال الناس كذلك أن في عالم الخفاء شريرين ومفسدين ، وكفاراً وضالين (وأتأمتا الصالحون ومثلاً دون ذلك كُتبت طرائق قِدْداً - الجن ١١) ، وأن معرفة الأحياء والأموات والإنس والجن محدودة بحدود الزمان والمكان الذي لا يحيطون به ، فالله سبحانه وتعالى هو وحده الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً • فمن استنجد بهم واستمدهم وعاذ بهم فقد أَرهق نفسه وغامر بها في المهالك وعرضها للشر كله (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن فزادوهم رهقاً - الجن ٦) ومن عاذ بالله وتوكل عليه فهو حسبه سبحانه وتعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ولا سلطان لشرار خلق الله من الجن والشياطين عليه (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين - الحجر ٤٢) (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون • إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون - النحل ٩٩ ، ١٠٠) (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - الأعراف ٢٠٠)

وقد أكمل الله سبحانه وتعالى للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته • فمن غامر بنفسه بعد ذلك في تلك المجازفات التي تعرض صاحبها للهلاك والبوار فقد حملها على طريق اليهود الذين أنزل الله تعالى على نبيه في وصفهم (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم

لا يعلمون ، واتبعوا ما تنالو الشياطين على ملك سليمان . وما كفر سليمان . ولكن الشياطين كفروا . يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر . فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه . وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله . ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم . ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق . ولئیسَ مآسروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون - البقرة ١٠١ ، ١٠٢)

وقد أغنى الله المسلمين عن التماس الهدى والخير في هذه المجازفات . فأنزل عليهم كتابا لا يضلون إن تدبروه واتبعوه . فمن أعرض عنه والتمس الهداية والرشاد في سواه ضل وكان الشيطان له قرينا وساء قرينا ، فالله سبحانه وتعالى يقول : (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم . أفلا تعقلون - الأنبياء ١٠) ويقول سبحانه وتعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين - الزخرف ٣٦) ويقول جل علا (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم نُنسى - طه ١٢٤ الى ١٢٦) .



القرآن والمكتشفات العلمية الحديثة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

فَتَيْنِ المسلمون بنتائج البحوث التجريبية التي برع فيها الغرب في العصر الحديث وسَبَقَ المسلمين • وجَرَّهم ذلك إلى الافتتان بكل ما يصدر عن الغرب من علم أو فكر • وظهر ردُّ الفعل لهذا الافتتان في أسلوب بعض الدعاة الذين أخذوا يَرُدُّونَ الناس إلى ساحة الدين باستخراج دَلالات كونية توافق كُشوف العلوم التجريبية الحديثة عند الغرب من القرآن والحديث • وأسرف بعضهم في هذا الاتجاه ، حتى أصبح في جَرَّيه وراء أى شُبْهَةٍ في النص تُخدم غرضه كالذى يبحث عن إبرق في أكوام من الثَبَن • وأصبح كلامهم في كثير من الأحيان مَثَار تَنْدُرٍ عند القراء • بل أصبح يزيد افتتان الناس بالحضارة الغربية ، يغريهم بها ولا يَصُدُّهم عنها ، لأنه كان يَعْنِي عند الناس أن هذه الحضارة أصبحت هى المقياس الذى تُقاسُ به صِحَّةُ الأشياء وفسادُها ، وأن النصوص الإسلامية من قرآن أو حديث لا تصحُّ إلا لأنها توافق ما جاءت به هذه الحضارة • ولم يكن كلُّ ما جاءت به هذه الحضارة حقائقَ علمية ثابتة • كان بعضُه حقائقَ علمية • وكان كثير منه فروضا ونظريات تقبل التغيير والتبديل وتخضع للتطور وتنتظر المَزِيد من البيان •

لذلك كان بعض مايقدمه أصحاب هذا المذهب من المسلمين في هذا الباب مقبولا نافعا ، وكان بعضه مرفوضا فاسدا يُسْرِف على نفسه وعلى الناس ، ويركب الشُّطَط في تأويل المعجزات وكلِّ مايتصل بعالم الغيب • فيقول مَثَلًا إن المقصود بالشيطان هو العقل الباطن ، وأن الجنة والنار حالات عقلية نفسية ، يَنعَمُ بها الصالحون وَيَشْقَى بها المفسدون ، وأن الإسراء والمعراج انتقال عقلى أو روحى كالذى يحدث في الأحلام وفى

معامل الروحانيين ممن يزعمون الاتصال بالأموات • وأن قصص القرآن وما جاء فيه من مثل خلق الدنيا وخلق آدم وخروجه من الجنة ليس إلا تمثيلاً ، وأن المقصود بإمداد الله رسوله ﷺ في قوله تعالى (وأنزل جنوداً لم تروها) هو قوة الروح المعنوية • وأن المقصود بـ (طيراً أبابيل) في سورة الفيل هو الجراثيم • ومن الواضح أن الذي ينكر المعجزة لغرابيتها وشذوذها عن المألوف خليف أن ينكر الوحي نفسه ، لأنه أمعن في الغرابة وفي الشذوذ عن المألوف • والذي يعتقد حقاً أن النبي ﷺ ينزل عليه جبريلُ مرسلًا من عند الله سبحانه وتعالى ، كيف يكبرُ عليه أن يسلم بما يُجرى الله على يديه من غرائب ، وما يحفه به من أسباب الرعاية التي تخالف مألوف العادة ؟ ويقولون إن قوانين الطبيعة ونواميس الله في خلقه لا تُخرق ولا تتبدل • وذلك صحيح • ولكن من هذه القوانين والنواميس ما لا يزال سرّاً محجوباً عنا • وما يبدو في المعجزات خرقاً للنواميس ، هو في حقيقة أمره خرقٌ لمألوف العادة ، بنواميس حجب الله علمها عن خلقه ودللها وسخرها لأنبيائه ورسله • ولو تدبر الناس الكُشوف الإلكترونية الحديثة في نقل الأصوات والصور وإجراء الحسابات الدقيقة والتحكم من بعيد في حركات الأجسام السابحة في الفضاء ، مما أُتيح لأهل عصرنا من مفاتيح هذه الأسرار ، لعرف أن في النواميس من الأسرار ما لا يحصى علمه إلا الله • وأن المعجزة الحقيقية ليست في اكتشاف مفاتيح هذه الأسرار • ولكنها في ضخامة ماخفي منها ، وفي عجائب ما أودع الله في الإنسان من قدرات وطاقات عقلية ، في هذه الكتلة السحمية التي نسميها (المخ) ، التي تذهب في الكشف والابداع إلى ذلك المدى البعيد ، ثم تصير فجأةً أسرع شيء تعفنًا وفساداً وانحلالاً بمجرد أن يفارقها السرُّ الإلهي الذي نسميه الروح •

كان من أسبق من اتخذ هذا الأسلوب الذي يستغل الكشوف الحديثة في التفسير من المسلمين المعاصرين طنطاوى جوهرى ، وتبعه في ذلك كثير من المسلمين • أُلّف طنطاوى جوهرى جملة من الكتب الصغيرة خلال حياته ، منذ أوائل هذا القرن ،

منها كتاب (جواهر العلوم) الذى ظهر ١٣١٩ (١٩٠١ م) وهو يقع فى ٢٤٤ صفحة ، ويقف عند كثير من عجائب الكون التى أظهرها العلم الحديث ، ويقرنها بما ورد فى شأنها من آيات القرآن الحكيم . ومنها كتاب (جمال العالم) الذى ظهر فى العام التالى سنة ١٣٢٠ (١٩٠٢ م) وهو يقع فى ١٤٠ صفحة . ويعالج إثبات وجود الله والرد على شبهات الكافرين به سبحانه وتعالى . وكتاب (التاج ، المرصع بجواهر القرآن والعلوم) الذى ظهر سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦ م) . وهو يقع فى ١٩١ صفحة ، ويحتوى على اثنين وخمسين جوهرة ، كل جوهرة منها تفسر آية من آيات القرآن فى ضوء ماكشف عنه العلم الحديث ، مما كان يجهله الناس فى عصر النبوة عند نزول الوحي به ، أو تقف عند ظاهرة من ظواهر الكون العجيبة لتفسرها فى ضوء القرآن . ومنها كتاب (أين الانسان) الذى ألفه سنة ١٣٢٨ (١٩١٠ م) ، وتقدم به إلى مؤتمر الأجناس الذى انعقد فى إنجلترا سنة ١٩١١ م وهو يقع فى ٢٤٠ صفحة ، وفيه خلاصة آراء المؤلف وفلسفته . ومنه كتاب (القرآن والعلوم العصرية) وكله فى حث المسلمين على جمع شملهم ، وعلى الأخذ بالعلوم العصرية حتى يكونوا أهلا لما وعدهم الله به من القيام على الأرض بالعدل .

كان طنطاوى جوهري شديد التحمس فى دعوة المسلمين إلى تعلم العلوم الكونية الحديثة التى كان يسميها (علوم الآفاق) . وكان موقنا أن ذلك هو أفضل السبل وأقومها إلى إدراك إعجاز القرآن ومعرفته حق المعرفة ، ورد الزائغين إلى هديهِ ، الذى لم يقدروه حق قدره . وإذا كانت العلوم والمعارف الحديثة هى التى صرفتهم عنه ، فهى نفسها خليفة أن تردّهم إليه اليوم كما صرفتهم عنه بالأمس . وكان أمله فى نهضة المسلمين عظميا . بل لقد كان هذا الأمل يتعاضم فى نفسه حتى ينزل منها منزلة اليقين . فهو يقول :

« إن الجيل الحاضر ومن كان قبله من المسلمين فى الأعصر المتأخرة إنما خلقوا ليحفظوا القرآن والشرعة حتى تتفكر فيها الأجيال المُقبلة ، ويخرج جيلٌ إسلامي

لم تحلّم به العصور ، ولم تلده سوائفُ الدهور • وهم خلفاء الله والنبي ﷺ وهذا سيكون وأنا به من الموقنين » •

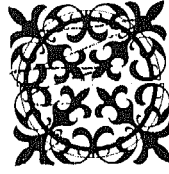
وأَجْعُ كُتُبُ طنطاوى جوهري وأكبرها هو تفسيره للقرآن ، المسمّى (الجواهر فى تفسير القرآن الكريم) • وهو يقع فى ستة وعشرين جزءاً ، متوسط صفحات كل جزء منها نحو من مائتين وخمسين صفحة من القطع الكبير • وقد بدأ طبعه فى المحرم سنة ١٣٤١ (١٩٢٣ م) • وهو تفسير عجيب ، تنقّل فيه بين فنون من العلوم والمعارف ، يَعْجَبُ القارىء للإمامه بها على تفاوت ما بينها ، وعلى بعدها عن متناول ثقافته ، بحكم نشأته الدينية وتخرجه فى معهد بعيدٍ عن التوسع فى هذه الدراسات ، وهو (دار العلوم) • وفى الكتاب صُورٌ وخرائط وجداول توضح ما يعرض له من شتى العلوم كالنبات والحيوان والفلك والرياضة وعلم طبقات الأرض والتاريخ القديم ، إلى آخر هذه العلوم والمعارف الإنسانية ، التى تخرج بالتفسير عن المفهوم التقليدى لهذا العلم •

وكان الاعتراض الأكبر على هذا المنهج فى التفسير أنه يفسر الآيات القرآنية بمفاهيم تخضع للتبديل والتغيير بتغير الكشوف وتبدّلها • وكان رد أصحاب هذا المنهج أن كلّ ما يقدّم فى هذا السبيل من مفاهيم يظل فى كل حال غير مُلزم للنص القرآنى ، لأن الذى يتغير ويتبدل هو فهمنا بحسب ما هو متاح لنا من المعرفة ، وأن الكشوف الجديدة تضيف إلى الكشوف القديمة ولا تناقضها فى أكثر الأحيان •

وقال المعارضون إن القرآن كتاب هداية ودين وليس كتاباً فى مختلف المعارف البشرية • ورد أصحاب هذا المنهج بأن ذلك صحيح • ولكن القرآن قَبَسٌ من علم الله ، يعرف كلُّ عصرٍ من أسرارهِ بقدر إمكان أهله وطاقاتهم وما تتسع له معارف عصرهم • ثم لا يخرجون فى ذلك كله عن علم الله • ولا يكون شئ مما اكتشفوه مناقضاً له • ومثّلُ الناس والقرآن فى ذلك كمثّلُ الناشئ الذى يسمع من أبيه ومن مشايخه كلاماً يفهم منه بعد أن تحكّمه التجربة مالم يكن يفهمه وهو صغير • والمثّل

مضروب كذلك فيما حفظناه في صغرنا من الشعر والحكم والأمثال • فلاشك أننا ندرك منها بعد نضج التفكير ما لم نكن ندركه حين كنا نردها ترديد البغاوات • والنص القرآني نفسه يكشف فيه المتدبر والمتروى جديدا كلما ردد النظر فيه • وذلك من صنيع الله للمسلمين • إذ حفظ كتابه من التغيير والتبديل وصانه من الترجمة والتحريف ، ليكون معجزة الإسلام الخالدة الباقية • لأن المعجزات الأخرى التي جاء بها رسل الله السابقون تُلزم مَنْ عاينها ورآها • أما القرآن فمعجزاته باقية مُلزمة لكل العصور • ورحم الله شوقي إذ يقول :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بكتابٍ غير مُنصرم
والى لقاء أقدم فيه نماذج من هذا المنهج فى التفسير ، ممثلاً فى كتُب طنطاوى
جوهري التى أشرت عليها •
والسلام عليكم ورحمة الله •





طنطاوى جوهري

في تفسير القرآن

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

يُعتبر طنطاوى جوهري من السابقين إلى اتخاذ هذا المنهج الذى يعتمد على الكشف العلمية الحديثة التى برع فيها الغرب ، فى تفسير القرآن الكريم • فمن أمثلة ما اعتمد فيه على التاريخ الحديث المستند إلى الوثائق والآثار ، كلامه عن التثليث عند البابليين والآشوريين والمصريين والبوذيين ، مما أظهرته الكشف الحديثة فى زماننا هذا ، ومما لم يكن معروفا على هذا النمط من قبل • وهو يلفت النظر إلى مطابقة ذلك الذى حققه التاريخ لقول الله تعالى فى شأن اليهود والنصارى (وقالت اليهود عَزَّيْرُ ابن الله • وقالت النصارى المسيحُ ابن الله • ذلك قولهم بأفواههم • يُضَاهِئُونَ قول الذين كفروا من قبل) ، وقوله جلَّ شأنه (كذلك قال الذين مِنْ قبلهم مثلَ قولهم • تشابهتْ قلوبُهُمْ) ، وقوله فى تشابه هذه الأمم التى حرفت ديانتها الأولى الصحيحة المنزلة ، واشترأكها فى إحلال التثليث محلَّ التوحيد (فاختلف الأحزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ • فويلٌ للذين كفروا من مَشْهَدِ يومٍ عظيم) • وهو يرى أن كشف الآثار والعلوم فى هذا العصر عن بعض ما ينطوى عليه القرآن من أسرار دليل على أن هذا العصر هو عصر ظهور الإسلام ، المرادُ بقوله تعالى (سنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبينَ لهم أنه الحق) • وقوله (وقُل الحمد لله : سِرُّكُمْ آيَاتِهِ فتعرفونها) ، وقوله (ثم إِنَّ علينا بيانه) •

ويقف طنطاوى جوهري عند قصة سحرة فرعون مع موسى عليه السلام ، ليستنبط منها أن إيمان العالم أقوى من إيمان الجاهل وأرسخ • فالسحرة - وهم علماء قومهم - لم يبالوا بتهديد فرعون ، وثبتوا على الإيمان رغم ما امتُحِنُوا به من العذاب • أما بنو

إسرائيل ، الذين كان إيمانهم إيماناً جُهَالاً ، فقد انقادوا للساميرى الذى دعاهم لعبادة العجل مِثْلَ انقيادهم لنبيهم من قبل ، فلم يلبث أن فتنهم وردهم إلى الكفر • وذلك لأنهم - وهم على ما هم فيه من الجهل - يَبْهَرُهُمْ كُلُّ عَجِيبٍ غَرِيبٍ • ولا يميزون فى ذلك بين المعجزة الصحيحة وبين السحر الباطل •

ويقول إن الله سبحانه وتعالى أظهر المعجزات على أيدى رُسُلِهِ لِيُنَبِّهَ الناس إلى المعجزة الكبرى التى جَهِلُوا قَدَرَهَا ، والتى خفيت عليهم آثارها ومظاهرها رغم تعددها وتكررها ، ورغم وقوعها تحت حِسِّهم وفى متناول يدهم ، وهى الكون وما ينطوى عليه من أسرارٍ ونظام • فيقارن المؤلف بين معجزة عصا موسى عليه السلام وبين معجزات الكون التى لا تُحْصَى ، مما ينطوى عليه النظام الواحد الدقيق الذى فطر الله سبحانه وتعالى عليه الأشياء ، فيقول :

« إن الناس يَعْجَبُونَ لعصا تنقلب حَيَّةً تارة وشجرة أخرى وشمعاً آوَةً ، وهكذا • وهم فى الحقيقة يشاهدون هذا وهم لا يفقهون ، وينظرون ولكن لا يعقلون • إن المادة تكون تراباً وماءً ، ثم تصير شجراً وزهراً ، كما قيل فى عصا موسى • ثم تصير حيواناً ذا شحمٍ ولحمٍ وجلد ، فيصيرُ الدَّلْوُ من جلده والشمع من شحمه • هذه أمور معروفة • ولكنَّ الناس لا يُعْجِبُهُمْ إلا ما ليس له قانون ولا نظام • ولكنَّ الله أبدع الطبيعة إبداعاً أَجْمَلَ وأبهى من إبداع عصى موسى ، لأنه يَخْلُقُ الحَيَّاتِ من المواد القذرة ، والشَّجَرِ من الأرض ، وهكذا • ولكن ليس من الحكمة أن يكون العالمُ سَبَهْلًا بلا نظام ولا ترتيب • ولو أن الحقَّ اتَّبَعَ أهواء الناس فأصبح الشجرُ ينقلب حَيَّاتٍ ، والحَيَّاتُ تنقلب عِصِيًا ، والعِصَى تنقلب شجراً لارتاع العالم الذى نسكنه ، ولضلَّ الناسُ سِوَاءَ السَّبِيلِ ، ولجَفَلَ الحيوان وخاف ، ولضاعت الثقة بنظام هذا العالم • فهذه هى المعجزة • ولَعَمْرَى إن معجزة الله هى هذا العالم ، ومعجزة الأنبياء أقل من معجزته بما لا يُحْصَى • »

ومن أمثلة اعتداد طنطاوى جوهرى على علم الفلك ما جاء فى تفسير قوله تعالى :
(لقد كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ • قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعاً • وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا • وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) • فهو يستعين على تفسيرها بما بينه علم الفلك من أن الأرض التى نساكنها كالعدم ، بعد أن كشفوا عما فى الفضاء من أجرام عظيمة هى الكواكب والمجرات • فكلُّ مجرَّة مركبة من مئات الملايين من الكواكب ، ومجرَّتنا التى منها شمسنا فيها نجوم نسبة شمسنا إليها ضئيلة جداً • حتى الجوزاء حجمها أكبر من حجم الشمس خمسة وعشرين مليون مرة • وقالوا : لو أن أرضنا صغرناها حتى صار حجمها كحجم الجواهر الفرد - ومعلوم أنه لا يرى - لصار حجم الكون الذى يرى بالتلسكوب مثل حجم الأرض الحالى ، ولصار حجم الكون كله على ما يقضى به مذهب (أينشتاين) ألف مليون أرضٍ منتشرة حولها فى الفضاء • إذن أرضنا على مقتضى تقريب هؤلاء العلماء عالم لا قيمة له ، صغير جداً • وعلى قدر صغره يكون صغر سكانه وأخلاقيهم ... فانظر لجهل هذا الإنسان ، الذى أظهره العلم الحديث ، وأشار له القرآن • وأعجب لنظام الآية فى سورة (المائدة) • حكَّم الله بكفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم • لماذا كفروا ؟ لأن الأرض ومن عليها لا قيمة لها بالنسبة لمخلوقاتنا • فأنا قادر أن أهلك هذا الإله الذى ادَّعيتموه ، وأهلك أمه ، وأهلك من فى الأرض جميعاً فكيف أتخذ ولداً فى عالم لا قيمة له ؟ ألم تروا أنى أملك السماوات والأرض ، وأنا على كل شيء قدير • فإذا كانت أرضكم أصبحت بالنسبة للعالم أشبه بالجواهر الفرد بالنسبة لألف مليون أرضٍ ، فقد انقلب الوضع • فبعد أن كان أهل الأرض مغترين بأرضهم ، ظانين هذه الكواكب كلها ما هى إلا سُرُج وضعت فى السماء لتضىء لأهل الأرض ، أصبحت الأرض اليوم ملحقة بالعدم • وسكانها أضعف منها وأقل حيلة • إذن سكان هذه الأرض قد اغترؤوا بأنفسهم حين جعلوا لله ولداً فى أرضهم الفانية الضعيفة

المعدومة في جانب مخلوقاتى • هذا كله يفهم من قوله (ولله ملك السموات والأرض) » •

وقد تأثر الطبيب الدكتور الهراوى بطريقة الشيخ طنطاوى في بعض ما كان ينشره في الصحف من مقالات في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن الميلادى ، مبينا أن الاعتماد على العلم في تفسير القرآن هو أمثل الطرق لرد شبهات المبشرين والمستشرقين • ففى مقال له نشر سنة ١٩٣٢ م تحت عنوان (المستشرقون والمبشرون وكيف نرد عليهم) عارض طائفة من الآيات القرآنية بما وصل إليه العلم الحديث ، من مثل قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا • وجعلنا من الماء كلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) • وقوله سبحانه (هو الذى خلقكم من طين) وقوله (إِنْ اللَّهُ فَالِقُ الْخَبِّ وَالنَّوَى ، يَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) وقوله (وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا) وقوله (ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك) • وبين أن من معجزات القرآن أن تتمشى آياته مع تطور العقل البشرى في مختلف مراحلها ، وأن تساير الفروض العلمية على تباينها وتغيرها •

وأكبر ما يؤخذ على طنطاوى جوهرى في كتبه ، وفى تفسيره على وجه الخصوص ، نُقُولُهُ الكثيرة فى مواضع مختلفة متعددة عن دُعاة تحضير الأرواح من الغربيين وانخداعه بدعاواهم ، دون إلمامٍ بأغوارها وأهدافها ظناً منه أن ذلك يساعد على ردّ تيار الإلحاد الذى ينكر الحياة الأخرى ، وينكر الحساب والثواب والعقاب • والواقع أن هؤلاء الروحيين كانوا ينشرون إلحاداً من نوعٍ جديد • والسلام عليكم ورحمة الله •



التغريب

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

حين كان يسعى المسلمون إلى تقليد الغرب والأخذ بأسباب حضارته مفتونين بها ، كان الغرب يسعى في مستعمراته وفي مناطق نفوذه إلى نشر حضارته بين المسلمين وحملهم عليها ، تقريبا للهوة التي تفصل بينه وبينهم ، وصيانةً لمصالحه في هذه المناطق • فقد نشأت عند سياسة الغرب ومخططي الاستعمار قاعدة سياسية حديثة تدعو إلى الاعتماد على الصداقة في حفظ المصالح الاقتصادية بدلا من الاعتماد على الجيوش • وهذا الذي يعمل له الاستعمار الغربي من نشر حضارته في مناطق نفوذه هو ما يسميه باحثوه وساسته بالـ Westernization أو (التغريب) •

وبرامج (التغريب) تحاول ان تخدم هدفا مزدوجا • فهي تخدم مصالح الاستعمار بتقريب الهوة التي تفصل بينه وبين المسلمين نتيجة لاختلاف القيم ونتيجة للمرارة التي يحسها المسلم إزاء المحتلين لبلاده ممن يفرض عليه دينه جهادهم • وهي في الوقت نفسه تضعف الرابطة الدينية التي تجمع المسلمين ، وتفرق جماعتهم التي تلتقي على قيم فكرية وثقافية وحضارية مشتركة ، وتتوحد وتتعاون على ما أُمِرَتْ به من أن تكون أمة واحدة في سلمها وفي حربها • وعند ذلك يستطيع الاستعمار أن ينفرد بكل بلد على حدة ويتعامل معه وظهره آمين من معاونة المناطق الإسلامية الأخرى له •

كانت برامج (التغريب) تقوم على قاعدتين أساسيتين • فالقاعدة الأولى هي اتخاذ الأولياء والأصدقاء من المسلمين وتمكينهم من السلطة ، واستبعاد الخصم الذين يعارضون مشاريعهم ووضع العراقيل في طريقهم وصد الناس عنهم بمختلف السبل • والقاعدة الأخرى هي التسلط على برامج التعليم وأجهزة الإعلام والثقافة عن طريق

من نصّبهم من الأولياء ، وتوجيه هذه البرامج لتطوير الإسلام وإيجاد تفسير جديد له يخدم أهدافهم ويدعم صداقتهم .

وتطوير الإسلام هو مشكلة المسلمين الأولى في هذا العصر ، وهو الخطر الأول الذى يجب أن تتظاهر الجهود لصدّ تيّاره ، لأنه خطر خفىّ يعمل له بعض الناس ، وينقاد له بعضهم الآخر ، دون أن يدركوا وجه الخطر فيه . وخطر التطوير على الإسلام وعلى المجتمع الإسلامى يأتى من وجهين : فهو إفساد للإسلام يشوّش قيمه ومفاهيمه الأصلية بإدخال الزيف على الصحيح ، ويثبت الغريب الدخيل ويؤكدّه . فبعد أن كان الناس يشاركون في تصاريف الحياة ، وهم يعرفون أن هذا الذى غلبوا على أمرهم فيه ليس من الإسلام ، والأمل قائم فى أن تجيء من بعد نهضة صحيحة تردّ الأمور إلى نصابها عند الإمكان ، يصبح الناس وهم يعتقدون أن ما يفعلونه هو الإسلام . فإذا جاءهم من بعد من يريد أن يردّهم إلى الإسلام الصحيح أنكروا عليه ما يقول واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون رُوحها .

وتقليد المغلوب للغالب مرحلة طبيعية طارئة تزول مع زوال الضعف . واختلاط الحق بالباطل والنافع بالضار فى هذه المرحلة أمر طبيعى كذلك . وهو مرحلة من مراحل التطور الصحيح ، تجيء بعدها التصفية والتمحيص عندما تزول غواشي الضعف والحمول . فإذا برّرنا ذلك الدّخيل - خيرَه وشرّه - تبريرا إسلاميا فى حال الضعف والعجز ، فقد أصلناه من ناحية ، وقد أقحمنا على الإسلام ما يُفسد بنيته من ناحية أخرى ، لأنه يصبح أخلاطا من عناصر شتى لا تجمعها رابطة ، ولا يضمها نظام ، ولا يُشبه بعضها بعضا . فهذا هو أحد الوجهين فى ضرر التطوير . وهو ضرر لا يعنى إلا المسلمين .

أما الوجه الآخر لضرر التطوير - وهو الذى يعنى أعداء الإسلام - فهو أن هذا التطوير ينتهى بالمسلمين إلى الفرقة التى لا اجتماع بعدها . لأن كل جماعة منهم سوف تذهب فى التطوير مذهبا يخالف غيرها من الجماعات . لأن هذا التطوير يقوم -

حَسَبَ ما هو مَخْطُطٌ له - على التفاعل بين الإسلام وبين البيئة المحليّة ، التي تختلف باختلاف بلاد المسلمين ، في واقعها ، وفي موارثها التاريخية السابقة على الإسلام ، التي يحرص (التغريب) على إحيائها وخلق نوعٍ من العصبيّة لها ، باسم التاريخ تارة ، وباسم الفولكلور أو الفنون الشعبيّة تارة أخرى • ومع توالى الأيام نجد إسلاما تركيا وإسلاما هنديا وإسلاما إيرانيا وإسلاما عربيا • بل ربما وجدنا في داخل هذا الإسلام العربي ألوانا إقليمية تختلف باختلاف البلاد • بل لقد سمعنا منذ الآن أحد المنتسبين إلى الإسلام من الهنود يتحدث في (مؤتمر برُستون للثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) سنة ١٩٥٣ م عن الإسلام الهندي الحديث • وسمعنا سمّيث يروى عن أحد المسئولين من الترك في كتابه (الإسلام في العصر الحديث) كلاماً يتحدث فيه عن إسلامٍ تركي خاص •

وكان أكثر ما يجري في العالم الإسلامي المعاصر مما يستهدف تطوير الإسلام والاقتراب به من قيم الحضارة الغربية يجري باسم الاجتهاد • والاجتهاد في الشريعة حقٌ لكل عالمٍ قادر عليه • ومن القدرة عليه أن يُلمّ بكل ما قيل في المسألة التي يبحثها ، لأنه لا يدرى إن فاته بعضها أن يكون هذا الذي فاته سببا في عدوله عن رأيه لو اطّلع عليه ، لأن فيه من الحقائق ما غاب عنه ولم يدخل في تقديره • وشأن الاجتهاد الديني في ذلك هو شأن الاجتهاد في أى فرع من فروع المعارف والفنون • فليس يباح للطبيب أن يجتهد حتى يبلغ من الامام بالطب حدّاً يعترف له عنده أصحابُ هذا العلم بالقدرة على الاجتهاد فيه • وليس يُقبَل من المهندس أن يطّلع على الناس في الهندسة برأى جديد حتى يثبت عند علماء الهندسة أنه قادر على الابتكار • بل لا يُقبل من رجال القانون الوضعي الذي أخذناه من الغرب في كل فروعه أن يجتهدوا فيه حتى يبلغوا درجةً من الحِذْق يسلم لهم معها بالقدرة على التشريع • والمهندسون والأطباء والقانونيون بعد ذلك في معظمهم مقلدون ، ولا يزيد اجتهادهم في الهندسة والطب والقانون عن الحِذْق والكياسة في تطبيق القواعد النظرية على الوقائع

العملية • فالاجتهاد إذن لم يُغلق بابه • ولكن المسلمين أحسّوا أن أصول المسائل وفروعها في مختلف احتمالاتها قد فصلت تفصيلا •

على أن الاجتهاد في حال افتتاننا بالحضارة الغربية أخطر غير مأمون العواقب ، يخشى معه أن يتحول ، من حيث يدري المجتهد - إن وُجد - ومن حيث لا يدري ، إلى تبرير للقيم الأجنبية التي هو معجب بها • فإذا لم يكن معجبا بها فالمجتمع الذي هو معجب بها لا يقبل اجتهاده • بل لا تزال تتناوله ألسن السفهاء من جهّاله ، الذين يتصدّون لإبداء الرأي فيما يعرفون وفيما لا يعرفون ، حتى يفقد ثقته في نفسه ويعتبر به غيره ، فيفتي حين يُستفتى وعينه على الذين يُفتيهم يريد أن يرضيهم ، وأن يظفر بتقديرهم وتقريظهم ، فيجور على الحق إرضاءً للخلق ، ويذهل عما عند الله تعجلا لما عند الناس •

وتبدو أهمية التطوير - وهو أخطر وجوه الغزو الفكري وأخفاها - لمن يقرأ عشرات الكتب التي ظهرت في نصف القرن الأخير لساسة الغرب وباحثيه ، الذين تناولوا حاضر العالم الإسلامي • فمنذ بداية هذا القرن الميلادي تحول اهتمام المستشرقين عن الدراسات الإسلامية القديمة إلى الدراسات الإسلامية الحديثة التي تتابع تطور الفكر الإسلامي والمجتمعات الإسلامية في مختلف بلاد المسلمين • وهى دراسات موجهة هادفة ، يسير تطورها تطوّر السياسة الاستعمارية واتجاهها إلى التغريب • وذلك واضح في كلام جب H.A.R. Gibb الذي قدّم به مجموعة البحوث التي قام بها عدد من المستشرقين تحت عنوان (إلى أين يتجه الإسلام Whither Islam?) والذي ظهر سنة ١٩٣٢م • فهو يقرر في هذه المقدمة أن مشكلة الإسلام ، بالقياس إلى الأوروبيين ، ليست مشكلة علمية (أكاديمية) فحسب • فإن لتعاليم الدين الإسلامي من السيطرة على المسلمين في كل تصرفاتهم ، ما يجعل له مكانا بارزا في أى تخطيط لاتجاهات العالم الإسلامي • فالإسلام ليس مجرد مجموعة

من القوانين الدينية ، ولكنه حضارة كاملة • ويقرر سميث W. C. Smith في كتابه (الإسلام في التاريخ الحديث Islam in modern History) الذي ظهر سنة ١٩٥٧م أن الإسلام يجتاز الآن مرحلة تحول وتغير خطيرة ، وأن دراسة هذا التطور تعنى المسلمين ، لكى يشاركوا في تطوير حياتهم مشاركة واعية ، وتعنى الأجانب ، لكى يراقبوا هذا التطور ويعرفوا مكانهم منه ، وتعنى الطرفين كليهما ، لكى يتوصلا وتقوم بينهما العلاقات • ويقول في الفصل الثالث الذى تكلم فيه عن العرب : إن الإسلام كان عاملا أساسيا وسببا مهما من أسباب وجود الهوة التى تفصل بين الغرب والعرب • وبعد أن يقيم الدليل على وجهة نظره ، بملاحظة الفرق بين علاقات الغرب بالمسلمين من العرب ، وبين علاقاته بغير المسلمين منهم ، يعود فيقول : « لقد أصبح من الحقائق الجديدة في مدينتنا العصرية ، أن من الواجب سدّ هذه الثغرات ، ببناء قنطرة فوق مثل هذه الهوة ، وخلق الأسباب الموصلة للتفاهم والتواصل » • ثم يقول « وخلق مثل هذا التفاهم بين المدينيات المختلفة والأديان المتباينة يتطلب جهودا مبتكرة ، لا يتوصّل إليها إلا بصعوبة » • وأهم من ذلك كله ما لاحظته عند الكلام عن الإسلام في الباكستان ، من أن التحررية والعلمانية والعالمية لا تروج في العالم الإسلامى إلا إذا فُسّرت تفسيراً إسلامياً مقبولا • وضرب مثلاً لذلك بكتاب على عبدالرازق (الإسلام وأصول الحكم) ، الذى تُرجم إلى الإنجليزية - لغة الباكستان الثقافية - والأردية - لغتها الوطنية - وفُرت منه نسخ كافية في الأسواق لتيسير تداوله •

ذلك كله واضح الدلالة في خطر (التغريب) ، وما يطمح إلى تحقيقه من أهداف بعيدة ، وما يُبدّل في سبيله من جهود تتسم بالعمق وطول النّفس ، وتحتاج إلى جهود في مثل مستواها للتخطيط لصدّ تياره ، وكشف أخطاره •

والسلام عليكم ورحمة الله •

توجيه التغريب على أسس علمية مدروسة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد •

تغريب المجتمعات الإسلامية وتطوير الفكر الإسلامى هو موضوع الساعة • وهو
يجب في صدر أى برنامج إسلامى ، إن كان للمسلمين برنامجٌ مدروس ومخططٌ مخلص
لنهضة إسلامية صحيحة • ولا ترجع أهمية (التغريب) و (التطوير) من وجهة
نظر الغرب - وأنا أعنى به يمينه وشماله على السواء فكلاهما شمال ، لأن أصحاب
اليمين هم المسلمون - إلى ما ذكرته في حديثى السابق من إحلال التواصل والتقارب
محلّ التقاطع والتباعد ، وإنشاء علاقة مستقرة أساسها الود والتفاهم ، بين طرفين
أحدهما رايح والآخر خاسر ، ولكنه يرجع من ناحية أخرى إلى ما يحاوله الاستعمار من
تفتيت الوحدة الإسلامية ، وما يقدره من أن هذا التطوير سوف يأخذ أشكالا متعددة
حسب ظروف كل بلد من البلاد الإسلامية • وهذا الهدف هو ما يكشف عنه كلام
جبّ في كتابه (إلى أين يتجه الإسلام ؟) حين يقول : « ويجب أن نلاحظ أن موضع
البحث ليس هو : هل تبقى الروابط القديمة التى كوَّنت هذه الوحدة ثابتة دون أن
تتغير أو تتطور ؟ فقد تتطور مظاهر هذه الروابط • وقد يصبح مفهوم الوحدة مغايرا
لمفهومها في العصور الوسطى • فكل ذلك ثانوى ليس بذى خطر • ولكن المهم هو :
هل ستكون هناك ميول مشتركة بين الشعوب الإسلامية ؟ وهل سيقوم إحساس بوحدة
العمل والهدف ؟ أم أن الآراء الجديدة وحاجات الحياة الجديدة ستنجح آخر الأمر في
تشتيت المجتمع الإسلامى وتحطيم وحدته ؟ » •

وقد سلك الاستعمار إلى (التغريب) كل سبيل ، وتغلغل في كل الميادين • فشمل
السلوك الفردى ، والآداب الاجتماعية ، والفنون والآداب • واستعان عليه بالبرامج

الدراسية ، وبالصحافة ، وبالمؤتمرات التى يتعاون فيها المسلمون والمستشرقون على توجيه الفكر الإسلامى ، وبهيئة الأمم المتحدة ، وبمؤسسة (اليونسكو) و (التربية الأساسية) فيها على وجه الخصوص . وكان من أهم ما اعتمد عليه فى ذلك من الأساليب ، نشرُ الاهتمام بالآثار القديمة ، وتوجيهه إلى تدعيم عصبية إقليمية ، تتسم بالغلو والإسراف فى الدعوة إلى حصر الانتباه فى أوطانٍ صغيرة ، وعدم الاكتراث بما يجرى خارجها ، وقد كادت هذه الأساليب تنجح ، فى الفترة التى بين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، فى إيجاد هذه العقلية الانفصالية بين المسلمين ، حتى رأينا بين العرب من يزعم أن بلده أقرب للغرب منه للشرق ، ورأينا بين المسلمين من يتكلم عن الإسلام الحديث والإسلام القديم ، بل رأينا منهم من يتحدث عن الإسلام الهندي والإسلام التركي . كادت هذه الأساليب تنجح ، ولم يضع لها حداً فى بلاد العرب إلا الدعوة إلى الوحدة العربية . ومن الحق أن هذه الدعوة قد شابهها فى المَخَاض ولازمها فى مولدها ، ما يدعو إلى الريبة فى أمرها . فقد نشأت فى أول أمرها قبل الحرب العالمية الأولى معارضة للجامعة الإسلامية . ثم ولدت بعد الحرب العالمية الثانية فى حضانة إنجليزية ، للسيطرة على الوعي الإسلامى الذى بدأ قبيل هذه الحرب . ومع ذلك فالجامعة العربية خليفة أن تؤتي ثمارها فى وقف هذه النزعة الشعبوية عند غير العرب من المسلمين ، إذا صُحِّحَ مَسَارُهَا بإشرافها روحاً إسلامية ، وإذا خلت من روح العصبية العنصرية ، واعتُبرت الخطوة الأولى فى طريق طويل ينتهى بوحدة الشعوب الإسلامية .

من هذا العرض السريع لبعض جهود الغرب وعلمائه فى توجيه (التغريب) على أُسس علمية مدروسة ، يبدو تقصيرنا فى إهمال الدراسات الغربية ، التى كانت ولا تزال أساساً لهذا التوجيه ، ولغيره من التوجيهات السياسية . إن الغرب يبنى سياسته على أساس دراسات علمية تقوم على استقصاء ما يكتبه المسلمون . فلماذا لا نبني سياستنا فى مقاومة مكايده وإحباط خططه والسبق إلى مبادئه على أساس علمي

مدرس ، يقوم على استقصاء ما كتبه ساسته وعلماؤه عن الشرق وعن العالم الإسلامي ؟ ولماذا لا نتعاون على نقل هذه الدراسات - وهي كثيرة ضخمة لا تنهض بها الجهود الفردية - إلى العربية ، بدلَ الاشتغال بنقل السخيف التافه والمدمر الهدام من القصص والآداب •

إن كثيرا من الظواهر التي تبدو للنظرة السطحية العاجلة قليلة الخطر ، لها دلالات عميقة ونتائج خطيرة ، تُعين مثلُ هذه الدراسات على كشفها • فهذا هو جب Gibb ، على سبيل المثال ، يتحدث عن تطوير الفنون التطبيقية في مؤتمر (برنستون) سنة ١٩٤٧ ، فيقول : « وعندما تشيع الفنون التطبيقية ويتعزز كيانها - ولا بد في سبيل هذا من جهود جبارة - سيؤثر ذلك في القيم الاجتماعية عند المسلمين بكل ألوانها • ومن يدري ماذا بُخِبَ الزمن من تطورات فنية قد تكشف عنها السنوات القليلة القادمة ؟ من يدري ماذا سيكون لهذه التطورات من آثار على السُّل والنظم الاجتماعية والإنسانية ؟ من يدري ؟ قد تضطر هذه التطوراتُ الفنية وما تتمخض عنه من نتائج زعماء الشعوب الإسلامية أن يقربوا بمنطقهم من التفكير الغربي » • ويتحدث سميثُ W. C. Smith على سبيل المثال أيضا ، عن الارتباط بين الدراسات اليونانية واللاتينية القديمة وبين العلمانية ، فيقول في كتابه (الإسلام في العصر الحديث) : « إن وزارة التعليم في تركيا تعتبر الدراسات الإنسانية - وهم يطلقون هذه التسمية على الآداب اليونانية واللاتينية القديمة - أساسا لحضارة هذا العصر • وقد اتخذت خطوات للنهوض بترجمة كثير من الكتب اليونانية واللاتينية القديمة ، ونشر هذه المترجمات بصفة منتظمة • • وهذا هو جزء من تصميم تركيا على أن تكون قطعة من أوروبا • فزعماء الوطنية يُدخلون هذه الآداب في الثقافة التركية عن تبصُر وروية • ولنا أن نقول إنهم يرمون بذلك إلى إدماج مفاهيمها في الحياة التركية • وتأثير هذه المترجمات في اللغة وفي الفكر ظاهر ملحوظ ، وهذه الحركة هي تطبيق لقرار واضح محدّد اتخذته تركيا ، وهو أن تصبح غربية في حضارتها ، مع

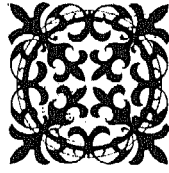
ملاحظة أن أصول الحضارة الغربية والعصرية هي الإنسانية ، وهي في آخر الأمر مستمدة من التراث اللاتيني اليوناني القديم » • وهذا هو نابليون ، على سبيل المثال كذلك ، يشير إلى أثر المسرح وأهميته في تطوير المجتمع ، فيكتب إلى (كليبر) بعد مغادرته مصر يقول : (لقد عَوَّلْتُ على أن أرسل إليك فرقة (الكوميدي فرانسيز) • وتلك فكرة أحرص عليها ، أولاً لتسلية جيوشنا ، وثانياً لتغيير عوائد هذه البلاد بإثارة عواطفها » •

إن التطوير قد يبدو ضئيل الخطر إذا نَظَرَ إليه كل باحث من زاويته الخاصة • فنظر إليه الأديب من زاوية الأدب ، واللغوى من زاوية اللغة ، والفنان - مصوراً أو نحاساً أو موسيقياً من زاوية فنه ، ومصمماً الأزياء من ناحية الزي ، وصاحب الفقه والقانون من زاوية فقهه وقانونه ، وهكذا • • • والواقع أن إدراك حقيقة الشيء يستلزم النظرة الشاملة إليه ، التي تحيط به من كل نواحيه • والذي ينظر إلى التطوير هذه النظرة الشاملة ، يستطيع أن يدرك خطورته ومدى آثاره • فإذا عمل صاحب اللغة على تطوير اللغة العربية ، وعمل الخطاط على تطوير الخط العربي ، وعمل الأديب على تطوير الأدب وطرائق التعبير والتخيل والنظم والأسلوب ، بل والموضوع ، وعمل الموسيقي على تطوير الألحان ونظامها ، وعمل الأخلاقيون والاجتماعيون على تطوير القيم والعادات والتقاليد ، وتطوير الزي واللباس والأثاث • فأى صلة تبقى لنا بعد ذلك بماضيها ؟ وأى خلية من خلايا عقولنا ، وأى زاوية من ضمايرنا ، وأى قطاع من شخصياتنا ، يصبح امتداداً لعقول الآباء والأجداد وضمايرهم وشخصياتهم ؟ بل أى صلة سوف تربط المسلم بالمسلم ، والعربي بالعربي ، وليس هناك ما يضمن أن يكون التطور في كل قطاعٍ من هذه القطاعات هو هو في كل بلدٍ من بلاد المسلمين والعرب ؟

أى مثلٍ صالحة من نماذج السلف المقتدى به ، وأى قيمٍ موحدة يمكن عند ذلك أن تجمعنا ؟ وأى شيء يفهم القارئ ويندوق المتذوق إذا قرأ كتب آبائه وأجداده ، أو

سمع شعرهم ، أو رأى فنونهم ، واللغة غير اللغة ، والخط غير الخط ، والأسلوب غير الأسلوب ، والموضوع غير الموضوع ، والقيم الفكرية غير القيم الفكرية والفنية ؟ وأى شيء يهز السامع إذا سمع موسيقى القدماء ؟ بل أى شيء يهزه إذا سمع القرآن يُرْتَل بلحون العرب ، ونحن منتهيون أن نرتله بغير لحونهم ؟

والذى يعتبر تعدد الزوجات شيئا بغیضا ینافی المدنية والتهدیب ، ویراه ضرباً من الشهوانية الحيوانية والبداية البربرية ، أليست تنفر نفسه من سيدنا رسول الله ﷺ ومن أصحابه ، حين يقرأ في سيرهم وأخبارهم أنهم كانوا يجمعون بين الزوجات ؟ ذلك هو ما دعا جب وسمث ونابليون فيما ذكرناه ، وغيرهم فيما لم نذكره ، إلى أن يتصوروا النتائج الخطيرة التي تترتب - لصالحهم - على التطوير . وذلك بعض ما تنطوى عليه الآية الكريمة من حكمة ، في قول الله تبارك وتعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه . ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) .



الحرية

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

كان من أبرز وجوه أزمة العصر ، وما أصاب الشباب فيها من تمزق نفسي واضطراب فكري وسلوكي ، دعواتٌ تتستر تحت اسمٍ محبَّب إلى الشباب هو (الحرية) • وكانت هذه الدعوة ذاتَ شُعَبٍ كثيرة متعددة ، تشمل حرية الفرد في أن يقول ما يشاء ، وفي أن يذيع على الناس في الكتب والصحف ما يشاء ، وفي أن يفعل ما يشاء ، دون أن يكون للقانون - دينيا كان أو وضعيا - سلطانٌ عليه • لأن أصحاب هذه الدعاوى لا يرون للدولة حقا في أن تفرض على الناس أى التزام ديني أو فكري أو خلقى • وأكثرُ الدعاة الأولين الذين تأثروا بهذه الدعوة وروجوها بين المسلمين قد تأثروا بها من طريق كُتَاب الثورة الفرنسية ومفكرها • ولكن أكثر الذين خدعوا بها وتحمسوا لها لم يدركوا أغوارها البعيدة ، وما تنطوى عليه من مخاطر ومفاسد • لم يدرك هؤلاء من الحرية إلا الجانب الذى يحقق للناس أنواعا من الضمانات التى تحميهم من التعسف والاستبداد والقهر ، وتمنحهم الحق في أن ينقدوا الخطأ والظلم ، دون أن يُرهبهم خوف الأذى في أنفسهم أو في أموالهم من جرّاء هذا النقد • ولكنهم لم يفهموا من الحرية معناها الواسع الذى عننته الثورة الفرنسية - وهى ثورة لا دينية ، بل هى ثورة معادية للدين ، وإصْبَع الماسونية وأثر الصهيونية العالمية فيها واضح مشهور - لم يفهموا الحرية في ذلك المعنى اللاديني الواسع ، الذى يشمل حماية القانون لكل الأعمال والأقوال التى تهز القيم الدينية والأعراف الاجتماعية ، وتجاهر بمخالفتها وتسفيهاها ، والتى تنشر الفوضى وتفرق الجماعة ، بالتشكيك فيما يلتقى عليه الناس من عقائد وقيم ، والتى تطلق للشهوات العنان •

فرفاعة الطهطاوى يعقد فى كتابه (المرشد الأمين للبنات والبنين) فصلا عن (الحرية العمومية ، والتسوية بين أهالى الجمعية) ، يقسم فيه الحرية إلى خمسة أقسام : حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ، وحرية مدنية ، وحرية سياسية . ويقول إن الحرية بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى إلى إسعاد الممالك . ومع أنه قد أدرك أن مجتمع الثورة الفرنسية مجتمع إرادة وليس مجتمع طاعة - على حد تعبيره - فهو مبنئ على الإرادة الحرة التى لا تقيد طاعة لشرعية إلهية لا تُقرها هذه الثورة المعادية للدين ، وقوانينه كلها تصدر عن العقل الحر الذى لا يعترف بما وراء الحياة من نعيم أو جحيم ، ولا يؤمن بما وراء الظاهر من حكمة غائبة يرشد إليها الوحي ، أو غاية بعيدة يهدى إليها الدين . مع أنه قد أدرك ذلك كله من أمر الفرنسيين فى كتابه (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) ، فإنه لم يستطع أن يدرك الأغوار البعيدة والجوانب المتعددة لكلمة (الحرية) . ولم يستطع أن يدرك أن نقل هذه الآراء إلى المجتمع الإسلامى يمكن أن ينتهى إلى النتيجة نفسها التى انتهت إليها فى فرنسا : نبذ الدين ، وتسفيه رجاله ، والخروج على حدوده . لم يدرك ذلك ، ولم يلاحظ إلا الجانب البراق الذى يأخذ نظر المحروم من الحرية ، حين يراها تمارس فى مختلف صورها وألوانها ، وفى أوسع حدودها . فكان كالجائع المحروم الذى بهرته مائدة حافلة بألوان الأطعمة ، فيها ما يلائمه وما لا يلائمه . ولكنه لم ينظر إليها إلا بعين حرمانه ، ولم يرها إلا صورة من النعيم الذى يتوق إليه ويشتهي . وبلغ الافتتان بالحرية قمته فى كتاب عبدالرحمن الكواكبي (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، الذى نشر مفرقا فى صحيفة (المؤيد) سنة ١٨٩٩ م ثم جمع فى كتاب سنة ١٩٠١ م .

وواقع الأمر أن اليهود والصهيونية العالمية كانت من وراء شعار الثورة الفرنسية المشهور (الحرية والإخاء والمساواة) الذى يمثله علم الدولة المثلث الألوان . وهو شعار ماسونى معروف . ولم يستفد أحد من هذا الشعار كما استفاد منه اليهود ،

الذين أصبح زمام السياسة والفكر والمال في أيديهم باسم هذه الشعارات التي حمتهم مما كانوا يتعرضون له من الاضطهاد والمصادرة • ومن شاء فليقرأ في هذا الصدد خطط الصهيونية العالمية الهدامة المشهورة باسم (بروتوكول حكماء صهيون) أو (مقررات حكماء صهيون) • ليقراً في البروتوكول الرابع :

« إن (لفظ الحرية) تجعل المجتمع في صراع مع جميع القوى • بل مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها • على أن (الحرية) قد لا تنطوي على أى ضرر • وقد توجد في الحكومات وفي البلاد دون أن تسيء إلى رخاء الشعب • وذلك إذا قامت على الدين والخوف من الله والإخاء بين الناس ، المجرد من فكرة المساواة التي تتعارض تماما مع قوانين الخليفة ، تلك القوانين التي نصت على الخضوع • والشعبُ باعتناقه هذه العقيدة سوف يخضع لوصاية رجال الدين ويعيش في سلام ، ويسلم للعناية الإلهية السائدة على الأرض • ومن ثمَّ يتحتم علينا أن ننزع من أذهان المسيحيين فكرة (الله) والاستعاضة عنها بالأرقام الحسابية والمطالب المادية) •

وليقرأ في البروتوكول التاسع :

« ولكي نحطم التنظيمات التي أقامها غير اليهود عاجلا ، فإننا قد دَعَمَناها بخبرتنا وأمسكنا بأطراف أجهزتها • فقد كانت الأجهزة تسير في الماضي بنظام صارم ولكنه عادل • فأحللنا محله نظاما متحررا غير منتظم ، ووضعنا يدنا على التشريع ، وعلى المناورات الانتخابية ، وتحكمتنا في إدارة الصحافة وفي نمو الحرية الفردية • والأهم من ذلك كله إشرافنا على التعليم ، وهو المعوّل الرئيسى للحياة الحرة • » •

وليقرأ في البروتوكول الثانى :

« أما غير اليهود فإنهم لا يستفيدون من تجارب التاريخ التي تمر بهم • ولكنهم يتمسكون بنظريات روتينية دون تفكير في النتائج التي يسفر عنها هذا المسلك • لذلك فنحن لا نغير غير اليهود أية أهمية • فليلهوا ما طاب لهم اللّهُو حتى ينقضي الوقت • وليعيشوا على أمل ملذات جديدة أو في ذكرى مُتَعٍ سالفة • وليعتقدوا أن

هذه القوانين التى أوحينا بها إليهم ذات أهمية قصوى • فبهذا الاعتقاد الذى تؤكد صحافتنا تزيد من ثقتهم العمياء فى هذه القوانين ... يجب ألا يكون هناك اعتقاد فى أن مناهجنا كلمات جوفاء • فنحن الذين هيأنا لنجاح داروين وماركس ونيثشة • ولم يفتننا تقدير الآثار السيئة التى تركتها هذه النظريات فى أذهان غير اليهود » •

هذا الهدم باسم (الحرية) يبدو ظاهرا ، على سبيل المثال ، فى مقال نشره رئيس تحرير مجلة (الهلال) سنة ١٩٢٤ م تحت عنوان (حرية الفكر) . ومؤسس المجلة (جورجى زيدان) وأبنائه - ومنهم صاحب هذا المقال - من كبار المنتمين إلى الماسونية • يقول صاحب المقال إن الناس وأهمون حين يتخيلون أنهم أحرار فى تفكيرهم ، فهم يخضعون عن وعى أحيانا ، وعن غير وعى فى كثير من الأحيان ، لقيود ثلاثة ، وهى : قيود الوراثة ، وقيود البيئة بكل ما فيها من عقائد وعادات ونظم وقوانين ، وقيود النفس بما فيها من ميول وعواطف وما لها من مصالح • ويبنى الكاتب على ذلك أننا لا نفكر لنصل إلى رأى أو عقيدة • ولكننا فى الواقع نعتقد أولا ، ثم نحاول بتفكيرنا أن نبرر هذه العقائد • وهو يدعو الناس إلى أن يحرروا أنفسهم ثم يعتقدوا • « فكل الأنبياء والمصلحين كانوا أحرار الذهن معتقّى الفكر • كل الأنبياء كانوا من أعداء القديم البالي • كل الأنبياء والمصلحين ترمدوا على النظم السارية والآراء الشائعة » •

فالأنبياء عند كاتب المقال تُوار ككل من حفظ التاريخ ذكرهم من الثوار . وما أكثر من فيهم من الأفاقين والمغامرين والمفسدين • والدين ثمرة لتفكير فردى حر ، وليس وحياً منزلاً من عند الله • ومن هنا يجيء الكفر الذى يريد كاتب المقال أن يدفع إليه قارنه ، بإنكار الوحى ، وما يترتب عليه من خضوع الدين للتغيير والتبديل والتنقيح ، بل الرفض ، ما دام عملاً فردياً حرّاً • بل هو يريد أن يحمل الناس على أبعد من ذلك ، حين يدعوهم إلى أن يسلكوا هذا الطريق الذى زعم أنه النقطة التى بدأ منها

الأنبياء ، وهى الشك فى كل العقائد والآراء الشائعة المتداولة والموروثة • ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون •

وكان بعض ما ينشر ويذاع باسم الحرية يتخذ أسلوباً أكثر خفاءً ولكنه أشد خطراً ، وأبلغ أثراً • ذلك أنه لا يعرض للدين بتصديق أو تكذيب • ولكنه يقارن بينه وبين ما توارثته الشعوب المختلفة من أساطير ، تاركاً للقارىء أن يستنتج من ذلك أن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير التى لا تصلح إلا للتلهية ولاإمتاع الخيال وترجية أوقات الفراغ - وأنها من إنتاج العقل البدائى الذى كان يعتمد على الخيال فى تعليل ما يحيط به من أسرارٍ عجز عقله عن إدراك حقيقتها • والواقع أن الاتفاق الذى نجده فى بعض الأحيان بين الأديان السماوية وبين هذه الأساطير الوثنية ، مرده إلى أن هذه الأساطير الوثنية هى فى حقيقة أمرها صورة محرفة من أديانٍ سماوية سابقة • فالله سبحانه وتعالى يقول : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) • ويقول تعالى فى دعوى اليهود أن عزيراً ابن الله وفى دعوى النصارى أن المسيح ابن الله (يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) وفى آية أخرى (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم • تشابهت قلوبهم) • ومعنى ذلك أن هناك أديانا سماوية سابقة ذهب بها أصحابها هذه المذاهب فى التحريف ، فجعلوا الرُّسل الذين بلغوها أرباباً من دون الله • والله سبحانه وتعالى يقول مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم (ولقد أرسلنا رُسلًا من قبلك • منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) • والسلام عليكم ورحمة الله •



تحرير المرأة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

كان من أبرز الدعوات التي تشعبت عن الحرية دعوة شغلت الرأي العام في بلاد العرب ، بل في كل بلاد المسلمين ، ولا تزال • وهى الدعوة إلى مايسمى (حقوق المرأة) أو ماكان يسمى عند الدعاة الأولين لهذه الحركة (تحرير المرأة) •

ظهرت الحركة في أول أمرها هادئة تدعو إلى تعليم المرأة • وظهرت بوادر ذلك في كتاب رفاة الطهطاوي (المرشد الأمين للبنات والبنين) وفيما كتبه في (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) من تهوين اختلاط الرجال بالنساء في أوروبا مما يكاد أن يكون دفاعا عنه • وهو واضح الدلالة على تأثر الطهطاوي بما شاهده في المجتمع الأوربي أثناء إقامته في باريز ، مُشْرِفاً على البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي باشا لتعلم الهندسة والطب والعلوم الحديثة ، واختارها من طلبة الأزهر • وهذا التأثير بالحضارة الغربية واضح أيضا فيما كتبه الطهطاوي في (المرشد الأمين) عن كراهية تعدد الزوجات • وقد أثار محمد عبده هذين الجانبين بعد ذلك في بعض مقالاته التي كان ينشرها في (الوقائع الرسمية) • ولكن الموضوع أثير في عنف لفت الأنظار عندما أصدر فيه قاسم أمين كتابين ، صدر أحدهما ١٨٩٩ م وهو كتاب (تحرير المرأة) ، وصدر الثاني في العام التالي سنة ١٩٠٠ م وهو كتاب (المرأة الجديدة) • وقد حاول قاسم أمين أن يخفى في الكتاب الأول دوافعه الحقيقية وهى الافتتان بالحضارة الغربية ل يبدو كأنه يستنبط أحكامه من كتاب الله وسُنَّة رسوله • ولكنه لم يلبث أن كشف عن حقيقة نواياه في كتابه الثاني حين أثاره الذين عارضوه بردودهم العنيفة ، فدعا الناس في صدر هذا الكتاب إلى أن يتخلصوا مما وقر في نفوسهم من أن

عاداتهم هي أحسن العادات ، وأن ماسواها لا يستحق الالتفات • وقال إن طالب الحقيقة لا يجب أن يجرى في إصدار أحكامه على هذا الضرب من التساهل ، بل يجب أن يعود نفسه على أن يجرى نقده للحوادث على أسلوب علمي • ثم قرر في آخر كتابه أن التمدن الإسلامي قد بدأ وانتهى قبل أن يُكشَف القِطْءُ عن أصول العلم (كذا ؟ !) فكيف يمكن أن نعتقد أن هذا التمدن كان نموذج الكمال البشرى ؟ وفي هذا الكتاب الذى كشف عن حقيقة نوايا قاسم أمين ودوافعه ، اختار المؤلف أسوأ مافي الحضارة الإسلامية من صور الفساد ليزعم أنها أقل من المستوى الذى بلغه اليونان والرومان في كفالة الحريات ، وختم هذه المقارنة الظالمة المُغرِضة بقوله : « متى تقرر أن المدنية الإسلامية هي غيرُ ماهو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليه لا بما كانت في الحقيقة عليه ، وثبت أنها كانت ناقصة من وجوه كثيرة ، فسيبان عندنا بعد ذلك أن احتجاج المرأة كان من أصولها أولم يكن • وسواء صح أن النساء في أزمان خلافة بغداد والأندلس كنَّ يحضرن مجالس الرجال أو لم يصح • فقد صح أن الحجاب هو عادة لا يليق استعمالها في عصرنا » •

والواقع أن الحركة كانت ثمرة لكثير من العوامل التى كانت تتفاعل في بعض المجتمعات الإسلامية ، وفي تركيا ومصر على وجه الخصوص • وقد اشتركت هذه العوامل جميعا في مولد هذه الحركة • فهي ثمرة من ثمار الدعوة إلى الحرية • لأنها تعتمد على أن الحرية الشخصية قد أصبحت في العصر الحديث حقا لكل إنسان ، ذكراً كان أو أنثى • ولأن هذه الحرية هي التى حَمَتْ قاسم أمين ومنحته الحق في أن يقول ما قاله مما يعارض الإسلام ويؤذى رأى العام ويمتلىء بالأكاذيب والمغالطات • والدعوة في الوقت نفسه ثمرة من ثمار الحركة التى تدعو إلى تحرير النُظُم والقوانين الاجتماعية من سيطرة الدين ، أو ما كان يسمى بفصل الدولة عن الدين • ثم إن الدعوة في أحد جوانبها ثمرة من ثمار الافتتان بالحضارة الغربية ، لأنها تريد أن تحيل المرأة المسلمة في كل أحوالها على النمط الذى تمثله الحضارة الغربية • وهى في جانب

آخر ثمرة من ثمار (التفریب) لأنها أهم ما عُني به الاستعمار ، فيما كان يبذله من جهود لحمل المجتمعات الإسلامية على حضارة الغرب وتقريب ما بينهما من فوارق ، بعد أن وَضَحَ أن وضع المرأة هو أبرز وجوه الخلاف وأبعدها في سعة الخُلف بين الطرفين ، مما لا يُرجى معه اتفاق إلا بفناء أحد المذهبين في الآخر .

انصرف جهد المؤلف في كتابه (تحرير المرأة) إلى التدليل على مازعمه من أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده . بينما غَلَبَ المنهج الغربي الحديث على كتابه الثاني (المرأة الجديدة) . فأقام بحثه فيه على الإحصاء الذي تدعمه الأرقام والوقائع - وهي على ما هو معروف تقبل الخداع والتلاعب من وجوه كثيرة - واستند في تبرير مذهبه إلى آراء بعض كتاب الغرب وباحثيه في فروع الدراسات النفسية والاجتماعية والطبية ، وعلم وظائف الأعضاء والتشريح منها على وجه الخصوص .

تناول قاسم أمين في كتابه الأول (تحرير المرأة) أربع مسائل : الحجاب ، واشتغال المرأة بالشئون العامة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق . وذهب في كل مسألة من هذه المسائل إلى ما يطابق مذهب الغربيين زاعماً أن ذلك هو مذهب الإسلام . ولا تزال الحجج التي قدمها هي سند الذين يتناولون هذه القضايا حتى الآن ، لا يجدون ما يضيفونه إليها .

في الحجاب يزعم أن الاسلام أباح للمسلمة أن تظهر بعض أعضائها ، متوسعا في تفسير (إلا ما ظهر منها) ومتجاهلا لما يدل عليه قوله تعالى (يُدْنِينَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ عَلَيْهِنَّ) وقوله (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ) وقوله (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتَهُنَّ) . وزعم أن قَصْرَ المرأة في بيتها وحظر مخالطتها للرجال تشريع خاص بنساء النبي ، وأن نساء المسلمين عامة منهيات عن الخلوة بالأجنبي فقط . كأن نساء النبي في وهمه أحوج النساء للتحرز مما يريب ، ولسدِّ الذرائع إلى الفساد .

وفي اشتغال المرأة بالشئون العامة جمع كل ما في التاريخ من حالات خاصة شاذة ، مع تحويرها وتحريفها ، ليصور أن عددا من النساء شاركن في مصالح المسلمين العامة في صدر الإسلام .

وفي تعدد الأزواج اعتمد على صدر الآية في قوله تعالى (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ) وَرَكِبَ مِنْهُ وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى (فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ) مقدمتين يصل منهما إلى تحريم التعدد ، متجاهلا عَجْزُ الآية الأولى الذي يبين أن المقصود بالعدل هو العدل القلبي وهو غير مستطاع ، ومتجاوزا عن صدر الآية الثانية في قوله تعالى (فَاذْكُحُوا مِطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) .

وفي الطلاق يعتمد على قوله تعالى (فَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا) . إِنَّ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) ويستند إليه في تقديم مشروع قانون لا يتم فيه الطلاق إلا بحكم قضائي ، متجاهلا كل ما سبقه من آيات ، وما ورد في غير هذه السورة من نصوص صريحة تقرر أن (الرجال قوامون على النساء) وأن عقدة النكاح بيد الرجل ، وأن التحكيم الذي تشير إليه الآية هو بين الأهل ، لا يخرج عن حدود الأسرة ، وليس القضاء طرفا فيه ، لأن العلنية فيه تدعو إلى اللجاج وإلى التجنى والافتراء وكشف ما ينبغي ستره من الأسرار .

والكتاب نموذج للمحاولات التي تُبذل لتطوير الإسلام وحمله على الحضارة الغربية ، بتفسيره على الوجه الذي يلائمها ، وحمل الحضارة الغربية عليه ، بتبرير مذهبها وأنماطها بنصوصه بعد تحريفها وتأويلها . ومذهبها فيما يورده من نصوص ، سواء كانت نصوصا من القرآن أو من كتب التاريخ يقوم على خلع النصوص من سياقها ، باختيار ما يناسبه مما تقوم به حُجَّتُهُ في مزاعمه ، وتجاهل ما لا يناسبه مما يعارض أهواءه معارضة صريحة حاسمة ، وتسخير النصوص لخدمة هدفه بالتأويل والتحريف والبت ، وتتبع الشواذ والرخص والضعيف من الحوادث والأحكام والروايات ، وتصيُدها على مدى القرون واختلاف الظروف والأحوال والمصادر ، لتبدو حين تُحْشَدُ مجتمعةً ويُضَمُّ بعضها

إلى بعض في حَيِّزٍ واحد كأنها عُرِفَ جَارٍ وأمرٌ شائع • وهذا التزييف والتزوير هو الذى وصفه شوقى فى إحدى قصائده حين قال عن قاسم أمين :

ولكَ الْبَيَانُ الْجَزْلُ فى أَثْنائِهِ الْعِلْمُ الْغَزِيرُ
فى مَطْلَبِ خَشِينٍ كَثِيرٍ فى مَزَالِقِهِ الْعُثُورُ
مَا بِالْكَتَابِ وَلَا الْحَدِيثِ إِذَا ذَكَرْتَهَا نَكِيرُ
حَتَّى لِنَسْأَلَ هَلْ تَعَا رُ عَلَى الْعُقَائِدِ أَمْ تُغَيِّرُ

كان قاسم أمين بكتابه هو أول من أثار القضية • بل هو أول من أوجدها من العدم • وكان أسلوبه فى ذلك هو الأسلوب الذى عُرِفَ وتكرر بعد ذلك فى كل ما يهدف إلى تحريف شريعة هذه الأمة ونقلها عن جيلتها وتبييع شخصيتها وافساد كيانتها وتفريقها فيما جمعها الله عليه وألف بين قلوبها فيه • يعتمد هذا الأسلوب على اختلاق قضايا لا حقيقة لها ، وافتعال مشاكل يتوهمون وجودها تحت أسماء خلافة براقة ، كالنهضة والتحرر والتطور ومتابعة ركب الحياة • وهى موضوعات متنوعة تشمل الحياة فى شتى نواحيها • يخترعونها ثم يهولون من شأنها ويكثرون من الأخذ والرد وطرح وجهات النظر حولها فى الصحف وفى مختلف وسائل الإعلام وأجهزته ، حتى يلفتوا أنظار الناس لها ، وتصبح أمرا واقعا وحقيقة ماثلة بعد أن لم تكن • وينشأ جيل من الناس مرت أذنه منذ وعى على سماع المناقشات حول هذه الموضوعات ، فيتوهم أنها مشكلات حقيقية لابد لها من حل • وينتج فى أغلب الأحيان - كما جرت عادة الناس - إلى الحل الوسط الذى يرضى الطرفين المتخاصمين حسب وهمة • والخاسر فى حقيقة الأمر هو صاحب الحق • والريح كُله للباطل وأصحابه • لأنهم يعضون فى الخنازير هذا الأسلوب نفسه جيلاً بعد جيل حتى يبلغوا ما يريدون •

وسأحاول فيما يلى من أحاديث أن أوضح بعض جوانب الموضوع فى وجهين من أبرز وجوهه ، وهما : الاختلاط ، واشتغال المرأة بالأعمال العامة • والسلام عليكم ورحمة الله •

قاسم أمين

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

لقد كتبا قاسم أمين (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) مقاومة عنيفة ، وجوباً صاحبهما بما يكره من غليظ القول وفاحشه ، بين مقالات صحفية ورسائل يطلب إليه أصحابها أن يسمح لهم بالانتناس بزوجته ومجالسة أهل بيته • ولكن دعوته لقيت رواجاً بعد الحرب العالمية الأولى في مصر على وجه الخصوص • فخلعت المرأة النقاب ، ثم استبدلت المعطف الأسود بالشوب الساتر الفضفاض الذي كانت تلتحف به ، ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة • ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب في الذبول وفي الاكهام وفي الجيوب • ولم يزل يجور عليها ويضيّقها على صاحبته حتى أصبحت كبعض جلدها • ثم إنها تجاوزت ذلك كله إلى الظهور على شواطئ البحر في المصايف • وقطعت المرأة مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي واقتحمت الجامعة تشارك الشباب في قاعات الدرس • دخلت كلية الآداب أولاً • ثم تسربت إلى كلية الحقوق ، ثم انتشرت في الكليات الأخرى على اختلاف التخصصات من طب وهندسة وعلوم وتجارة • وكان آخر ما اقتحمته كلية الزراعة • وخُصّصَت لهن الصفوف الأولى في بدء الأمر ، ثم تُركن للاختلاط الكامل يُنحسرن بين الصفوف والمقاعد • وامتلأت المصانع والمتاجر بالعاملات والبائعات • وحطم النساء الحواجز التي كانت تقوم بينهن وبين الرجال في المسارح وفي الترام وفي كل مكان • فاختلفت المقاعد التي جرت العادة على تخصيصها للسيدات بعد أن أصبحن يفضلن مشاركة الرجال • بدأ ذلك كله بعد الحرب العالمية الأولى ، وازدادت جذته بعد الحرب العالمية الثانية • وتتابع التطورات في سرعة مذهلة لم تدع فرصة للمعارضة • وأعان على اندفاعها جو الثورة

التي تلت الحرب ، والتي كانت تطالب بجلاء جيوش الاحتلال الإنجليزية ، وما كان يوحى به من جرأة وتمرد على كل قديم . وظهرت طلائع ذلك في التجمع النسائي المشهور ، الذى طاف شوارع القاهرة سنة ١٩١٩ ، فى طريقه إلى دار المعتمد البريطانى ، وكان عدده يربو على الثلاثمائة ، وعلى رأسهن صفية زغلول حرم سعد زغلول باشا زعيم الثورة ، وهدى شعراوى حرم على شعراوى باشا أحد أعضاء وفد مصر الثلاثة الذين نابوا عن المصريين فى مطالبة إنجلترا بالجلاء - وكلتاها متسميتان باسم زوجيهما : زغلول وشعراوى - على طريقة الإفرنج - وهذا التجمع هو الذى وصفه حافظ ابراهيم فى قصيدته :

خرج الغوانى يَحْتَجِبْنَ وَرُحْتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّ

وتجرات المرأة منذ ذلك الوقت على المشاركة فى القضايا الوطنية وفى مختلف الميادين الاجتماعية ، وشاركت مشاركة بارزة فى حركة المقاطعة الاقتصادية سنة ١٩٢٢ م . وغفلت أعين المعارضين من المحافظين عن هذه الخطوات الجريئة التى أضفى عليها جو الثورة لونا من النبيل حفظها من أن تهاجم أو تُمس . ثم تنبه المحافظون فإذا المرأة ماضية فى استئناف الطريق الذى وضعت قدمها على أوله . فأخذت تؤسس الجماعات وتقيم الحفلات وتعقد الندوات والمحاضرات . وترعمت هذه الحركة النسائية هدى شعراوى حرم على باشا شعراوى . وتجرات هذه المتزعمة على مالم تتجراً عليه امرأة مسلمة من قبل ، فسافرت إلى باريس وإلى أمريكا لدراسة شؤون المرأة ، وأخذت تلقى بالتصريحات والأحاديث لمدوبي الصحف .

منذ ذلك الوقت أصبح للمرأة قضية حقيقية تناوها الشعر وتناولتها الصحف ، بين مؤيد يشجع السفور والاختلاط بما ينشره من أخبار المرأة فى تركيا بعد الانقلاب الكمالى ، ومعارض ينكر ما يرى من تغير حال المرأة ومن جرأتها على الدين والتقاليد ، وتمردا على سلطة الأب والزوج ، وتقليص الثوب فوق جسدها فى سرعة تجاوزت كل ما يتخيلون .

وكانت الاستفتاءات المُعْرَضَة الموجهة التي كانت تنشرها الصحف والمجلات ، ومجلة (الهلال) و (المقتطف) على وجه الخصوص ، في شئون المرأة المختلفة ، مثل الزواج بالأجنبيات واختلاط الرجال بالنساء ، وما يحسن استبقاؤه من عاداتنا الشرقية في المرأة ، وما يحسن اقتباسه من الإفرنج . كانت المجلات تعرض في كل واحد من هذه الاستفتاءات رأى بعض مشاهير الكتاب والمفكرين ، الذين تختارهم اختيارا خاصا يحقق ما تقصد إليه من توجيه . وكان عليهم أن يجيبوا على أسئلة محدّدة اختيرت موضوعاتها وكلماتها اختيارا خبيثا ماكرا .

شغلت الصحف بمثل هذه الموضوعات ، ودار حولها جدل كثير صور فيه المحافظون في معظم الأحيان بصورة الرجعي المتزمت الضيق الأفق ، الذي يريد أن يحرم الحياة من مباهجها ليرُدّها إلى كآبة الصحراء وجفاء البداوة . واستعانوا على هذا التصوير بالمرسحيات الهزلية والصُّور السُّخريّة والفكاهات المستطرفة المضحكة . وتتبع الشباب هذه المعارك . وكان بطبيعة ظروفه وتكوينه وسنّه وثقافته التي يشيع فيها الغزو الفكري أميل إلى قبول آراء دعاة الحضارة الغربية والنفور من آراء المحافظين . وكان ذلك هو الهدف الحقيقي من كل هذه المعارك التي تريد أن تلفت إليها الأنظار .

في هذه المعركة قال شكيب أرسلان في مقال نشرته مجلة (المنار) سنة ١٣٤٣ (١٩٢٥ م) :

« عند إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م قال أحمد رضا بك من زعماء أحرار الترك : ما دام الرجل التركي لا يقدر أن يمشي علنا مع المرأة التركية على جسر « غلطة » وهي سافرة الوجه فلا أعد في تركيا دستورا ولا حرية . فكانت هذه هي المرحلة الأولى . وفي هذه الأيام بلغني أن أحد مبعوثي مجلس أنقرة ، الكاتب رفقي بك ، الذي كان كاتباً عند جمال باشا في سورية ، كتب : إنه مادامت الفتاة التركية لا تقدر أن تتزوج بمن شاءت ولو كان من غير المسلمين ، بل مادامت لا تعتقد مقالة مع

رجل تعيش وإياه كما تريد ، مُسْلِمًا أو غير مُسْلِم ، فإنه لا يَعُدُّ تركيا قد بلغت رقىا .
فهذه هي المرحلة الثانية »

« فأنت ترى أن المسألة ليست منحصرة في السفور ، ولا هي بمجرد حرية المرأة المسلمة في الذهاب والمجيء كيفما تشاء . بل هناك سلسلة طويلة حلقاتها ، متصل بعضها ببعض ، لا بُدَّ أن ينظر الإنسان إليها كلها من أولها إلى آخرها . فإذا كان ممن يرى حرية المرأة المطلقة ، فعليه أن يقبلها بحذافيرها .. أما أن نجتمع بين حرية المرأة وعدم حرّيتها ، وأن نطلق لها الأمر تذهب حيث أرادت وتضاحك من أرادت ، وتغامز من أرادت ، ثم إذا صبا قلبُها إلى رجل من غير جنسنا ، فذهبت وساكنته ، وكان بينها وبينه ما يكون بين الرجل وزوجته ، أقمنا القيامة ودعونا بالمسدّس ، وقتلنا : يا للحمية يالللأنفة يالللغيرة على العرض ! فهذا لا يكون . وليس من العدل ولا من المنطق أن يكون » .

« والنتيجة التي نريدها قد حصلت ، وهي أن سلوكنا مسلك الأوربيين ، حَدُّو القُدَّة بالقُدَّة* في هذه المسألة ، هذا له توابع ولوازم لا بد أن نقبلها ، ولا يبقى معها محل لكلمة (أعوذ بالله) . كلا : لا يوجد هناك (أعوذ بالله) . بل تلك مدنية وهذه مدنية . تلك نظرية وهذه نظرية . فعلينا أن نختار إحدى المدينتين أو إحدى النظريتين ، مهما استتبعت من الأمور التي كان يقال في مثلها عندنا (أعوذ بالله) . »
والسلام عليكم ورحمة الله .

* القُدَّة ريش . السهم . والحذو القطع والتقدير على مثال . والمعنى : كما تقدّر كل واحدة من الريش على أختها وتُقطّع على مثالها .



المجتمع المختلط

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

تطورت الدعوة إلى المجتمع المختلط الذى يضم الرجال والنساء تطورا خطيرا بعد الحرب العالمية الثانية • فأصبح هذا الاختلاط حقيقة ماثلة شائعة في معاهد العلم وفي الإدارات الحكومية وفي المصانع وفي الشركات وفي الأندية والمجتمعات • وأصبح الاتجاه الذى يبرر هذا التطور بالنصوص الإسلامية بعد تحريفها وإفساد تأويلها ظاهرة بارزة • ولم يكن في هذه النصوص جديد • فقد كانت كلها مما أثاره قاسم أمين في كتابه (تحرير المرأة) • ولكن أصحاب هذه الدعوات لم يكونوا يرون بأسا في تكرار ما يقولون ، لأنهم يعرفون أن جيلا جديدا يسمعها لم يكن قد سمعها من قبل • لم يكن فيما يرددون جديد • ولكن الجديد الخطير هو أن الصحافة وكل أجهزة الإعلام أصبحت جميعا في جانب هذا التطور ، لا تنشر إلا ما يؤيده ويؤكد صحته ويُسفه رأي من يعارضه • وبذلك تحقق البروتوكول التاسع من (مقررات حكهاء صهيون) الذى جاء فيه :

« ولكي نحطم التنظيمات التى أقامها غير اليهود عاجلا ، فإننا قد دعمناها بخبرتنا وأمسكنا بأطراف أجهزتها • فقد كانت الأجهزة تسير في الماضى بنظام صارم ولكن عادل • فأحللنا محله نظاما متحررا غير منتظم ، ووضعنا يدنا على التشريع ، وعلى المناورات الانتخابية وتحكّمنا في إدارة الصحافة وفي نمو الحرية الفردية • والأهم من ذلك كله إشرافنا على التعليم ، وهو المعوّل الرئيسى للحياة الحرة » •

ولست أرى داعيا لإيراد النصوص القرآنية التى تعارض دعوى الاختلاط وتنقض مزاعم أصحابه فهى مشهورة معروفة • لذلك أكتفى بالإشارة إليها في سورة النساء

في الآيات ٢٥ - ٢٨ ، وفي سورة النور في الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٦١ وفي سورة الأحزاب في الآيات ٢١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٣ ، ٥٩ .

والآيات في مجلتها صريحة الدلالة فيما تأخذ به المسلمين والمسلمات . فهي تأمرهم :

١ - بستر جسم المرأة كله - ومنه شعر الرأس ، وتجنب إبداء المفاتن والتزين أمام الغرباء من غير المحارم .

٢ - بتجنب التسكع في الطرقات واستعراضها في غير حاجة ، وبلا استقرار والاكتنان في البيوت .

٣ - بتجنب التحدث إلى الرجال . فإذا دعت إلى ذلك ضرورة فليكن بين الرجل والمرأة ستار . وليكن الحديث أميل إلى القصد ، وعلى قدر ما تقضى به الضرورة .

٤ - بغض البصر عند التقائه بالرجال . والرجالُ مأمورون بمثل ذلك عند التقاء نظرهم بالنساء .

٥ - بالزواج لمن استطاعه . وبالصبر وضبط النفس لمن أطاقه . وبالزواج من الإماء لمن لا يطيق الصبر ولا يجد مهر الحرائر . أما اتخاذ الخليلات ومقارفة البغايا فهو محرمٌ يحذر منه الإسلام .

٦ - الخطاب الموجه إلى نساء النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الأحزاب ليس خاصاً بهن ، فهو معللٌ بأنه سبيل الطهارة والبعد عن مظان الريبة وإطباع مرضى القلوب . ولا شك أن المسئليات من عامة الناس أبعد عن العصمة وأدنى إلى إطباع مرضى القلوب من نساء النبي أمّهات المؤمنين .

هذه القواعد الواضحة لا تدع مجالاً للتوفيق بين إسلام المسلمين وبين مذاهب دعاة المجتمعات المختلطة في شتى صورها وأشكالها . وذلك هو حكم الدين لمن أراد أن يقيمه . وتلك هي حدود الله لمن أراد أن يلتزمها .

أما الذين لا يلزمون أنفسهم حدود الله ولا ينقادون لما أمر به فلنا معهم حديث آخر . يُردّد المتفرنجون من المسلمين ما تزعمه بعض الدراسات النفسية ، والفرويديّة

منها على وجه الخصوص ، من أن الاختلاط يهذب الغريزة الجنسية وينفّس عن الكبت الذى يورثه الحجاب • وهؤلاء المتفرنجين نقول :

إن الله فى خَلْقِهِ سُنَنًا لَا يَشِيدُ عَنْهَا شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ • ومن سننه الكبرى فى خَلْقِهِ أَنْ يجعل فى كل ما خلق ذكرا وأنثى (ومن كل شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لعلكم تَذَكَّرُونَ - الذاريات ٤٩) نجد ذلك فى الحيوان وفى النبات وفى الظواهر الطبيعية كالكهرباء والمغناطيس • ونجده فى الكرة الأرضية نفسها ، فأحد قطبيها سالب والآخر موجب • ونجده فى أدق دقائق الخَلْقِ والطف وحداته وهى الذرة • و (سبحانه الذى خَلَقَ الأزواج كلها مما تُنْبِتُ الأرضُ ومن أنفسهم ومما لا يعلمون - يس ٣٦) • ومن طبيعة الأزواج فى كل هذا الخَلْقِ أَنْ تتجاذب • فالذكر والأنثى من النوع الواحد يتجاذبان حتماً حسب ما بنى الله عليه طبيعة كل منهما ، وحسب ما هَدَى إليه من فطرة • وسبحان الذى (أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثم هَدَى - طه ٥٠) • فَمِيلُ المرأة للرجل وميل الرجل للمرأة إِذَنْ هو جزء من قانون عام اقتضته حكمة الله ، لا سبيل إلى تجنبه أو إنكاره • وليس من المطلوب ولا هو مما يُرْغَب فيه ويُسَعَى إليه أَنْ يخفّف هذا الميل أو يُعمَل على إضعاف جذّته •

ثم إن اطلاق الأمر فى تجاور الرجل والمرأة واختلاطهما لا يخلو من أحد أمرين • فهو إمّا أَنْ يؤدي إلى إثارة الشهوة فى الجنسين وزيادة حدتها ، أو يؤدي إلى إضعافها وكسر حدتها • فإذا كان الاختلاط مؤدياً إلى تجاذب الذكر والأنثى على ما رُكِبَ فى طبيعة كل منهما ، ولم تكن هناك حدود لهذا الاختلاط أو نظام مرسوم ، تحوّل الأمر إلى فوضى لا ضابط لها • فيختلط النسب ، وتقع الضغائن والأحقاد بين الآباء والأزواج وبين من اعتُدي على أعراض بناتهم ونسائهم • وبين المتنازعين والمتنازعات والمتنافسين والمتنافسات على العشيق الواحد والعشيقة الواحدة • أمّا إذا كان الاختلاط مُضعِفاً للشهوة يكسر جذّتها - وهو فرض غير بعيد الاحتمال ، لأن إلفَ النفس للشئ وطولَ اعتيادها إياه يُضعف أثره فيها - فذلك هو البرود الجنسى عينه •

وهو مرض يلتمس المصابون به العلاج عند طبيب • ثم إن البرود الجنسي متفاوت الدرجات • وهو في غير الحالات المَرَضِيَّة الشديدة التي تعرّض النوع البشري للفناء يستتبع نتيجتين خطيرتين : ضَعْفُ النسل وتخلّفه وانحطاط خصائصه ، وانتشار الشذوذ واستفحال دائه • أما النتيجة الأولى فهي ترجع إلى أن حِدَّة الشهوة وقوتها سبيلٌ إلى تحسين النسل وداعية إلى إبراز أحسن خصائصه وأفضل صفاته • كما أن فتور الشهوة وبرودها سبيل إلى ضعف النسل وداعية إلى تدهور خصائصه وانحطاط صفاته • وذلك ما يؤيده علماء الوراثة فيما ينبّهون إليه من خطر زواج الأقارب ومضارّه ، وإن كان تعليلهم لذلك مبنياً على وجود ما يسمونه (الجِينَات) التي تورث الخصائص الخَلْقِيَّة والخُلُقِيَّة المختلفة • ويؤيد ذلك تأييداً قوياً تحريمُ الشريعة الإسلامية زواج أخوات الرضاعة • فمن الواضح أنه مبنى على اعتبار الغرباء الذين لا تربطهم قرابة الدم ممن تجاوزوا وازداد إلف أحدهما للآخر في حكم أقرباء الدم • هذه حقيقة معروفة تقطع بها المشاهدة وتجاربُ الأجيال المتعاقبة ، وتؤيدها الشرائع الثابتة • وهي تشمل الإنسان والحيوان على السواء • ومن مظاهر تطبيقها في الحيوان إبعادُ الذكور عن الإناث في حظائر تربية الطيور والحيوان وحظرُ السماح باختلاطهما إلا عند اللّقاح • ومن علامات صِحَّتْها فيما أقدره انحطاط خصائص الجنس البشري في الهمج من العراة الذين لا يزالون يعيشون في المتاهات والأدغال على حالٍ تقرب من البهيمية ، فإنهم لا يأخذون طريقهم في مَدَارِج الحضارة إلا بعد أن يكتسوا • ويستطيع المراقب لحالهم في تطورهم أن يلاحظ أنهم كلما تقدموا في الحضارة زادت مساحة الأعضاء الكاسية من أجسادهم • كما يستطيع أن يلاحظ أن الحضارة الغربية في انتكاسها تعود في هذا الطريق القهقري درجة درجة ، حتى تنتهي إلى العُرى الكامل في (مدن العراة) ، التي أخذت في الانتشار بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم استفحل داؤها في السنوات الأخيرة •

أما النتيجة الثانية الخطيرة للبرود الجنسي وهي انتشار الشذوذ واستفحال دائه فهي

راجعة إلى أن الفتور الناشئ عن إلف المخالطة يحتاج في تنشيطه وإثارته إلى الخروج عن المألوف والشذوذ عن السنن • وذلك ما يؤذن بالخراب ، لأنه من وجوه الترف التي قال فيها تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) ، ولأن الدمار يحل لا محالة على من يخرق سنن الله ، لأنها أقوى وأبقى ممن يريد تعطيلها أو تحويلها •
والسلام عليكم ورحمة الله •



المرأة والأعمال العامة

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

زعم أعداء المرأة المتظاهرين بالدفاع عنها بعد أن أخرجوها من بيتها الذى زعموه سيُجُنّا وسموا ذلك تحريرا ، أن حريتها لا تكمل إلا بمنحها حق العمل مع الرجل سواءً بسواء • وتسربت المرأة إلى ميادين محدودة من العمل فى مصر بعد الحرب العالمية الأولى • وكان الذى يجرى فى تركيا بعد الانقلاب الكمالى يشجّع على ذلك ويُعين عليه ، باعتباره وجهاً من وجوه النهضة كما يزعمون • ثم استنفحل الأمر بعد الحرب العالمية الثانية فأقحمت المرأة على كل ميادين العمل بلا استثناء ، وشاركت فى الحكم وفى التشريع إلى أعلى درجاتها ، بعد أن مُنحت حق المشاركة فى الانتخاب ، وفى تمثيل الشعب فى المجالس النيابية ، وتولت الوزارات • ولم يلبث هذا التقليد أن انتشر فى كثير من البلاد العربية • واتخذ شكل الطفرة المفاجئة والانقلاب الأهوج فى بعضها • وراحت بقية البلاد التى لم تلحقها الموجة تعاني من صدّ تيارها الطاغى فى مواجهة الزاحفين •

ويستطيع الدارس المتأمل أن يرى بوضوح فى كل ما يجرى أن المرأة لا توضع حيث تدعو الحاجة - صحيحة كانت أو مزعومة - إلى أن توضع • ولكنها توضع لإثبات وجودها فى كل مكان ، ولإقحامها على كل ما كان العقل والعرف ينادى بعدم صلاحيتها له • فليس المقصود بتوظيفها سدّ حاجة موجودة ، ولكن المقصود هو مخالفة عُرْفٍ راسخ ، وتحطيم قاعدة قائمة مقررة ، وإقامة عُرْفٍ جديد فى الدين وفى الأخلاق وفى الذوق ، وخلق المبررات والمقومات التى تجعل انسلاخنا من إسلامنا وعروبتنا أمرا

واقعا ، كما تجعل دخولنا في دين الغرب ومذاهب الغرب وفُسق الغرب أمرا واقعا كذلك .

والحجة الأولى عند أنصار هذه الدعوة أن المرأة نصف المجتمع . وأننا حين نحرّمها من العمل نعطل نصف القوى العاملة . والحجة باطلة من وجهين : أحدهما أنها قائمة على افتراض أنها لا عمل لها في البيت يشغل كل وقتها ، وهو غير صحيح . وثانيهما أن حُجَّتَهم لا تقوم إلا بعد أن نقضي على البطالة في الرجال قضاءً كاملا . وإذا قلتُ البطالة فالمقصود بها البطالة في كل صورها الصريحة والمقنّعة . والبطالة المقنّعة أكثر انتشارا من البطالة الصريحة . وأبرز صورها زيادة العمالة عن حاجة العمل الحقيقية ، والاشتغال بالأعمال التافهة ، واحتراف الحِرَف غير المفيدة . بل الضارة في كثير من الأحيان ، والإهمال أو التراخي في القيام بواجبات الوظيفة ، أو الانزواء وترك العمل جملةً اعتياداً على وجوه للرزق ضيّقة أو واسعة ، تحيى بغير عمل من طريق الصدقات أو الأعطية والإعانات .

ومن المغالطات المشهورة التي ابتدعها قاسم أمين وتابعه فيها كثير من الناس أنهم يقولون : إن بين النساء نابغات . وبينهن عانسات . وبينهن من فقدت الزوج والعائل . فلماذا لا يشارك هؤلاء في الأعمال العامة في الحياة ؟ والواقع أن الإسلام لم ينكر على المرأة حقها في السعي الشريف للرزق إن دعتها إلى ذلك ضرورة . فالإسلام سمّح . وقد أباح للضرورة أشياء كثيرة ، حتى الميتة ولحم الخنزير وما أُهْلَ به لغير الله . فرفع الإثم فيها عن المضطر في أكثر من موضع من القرآن الكريم (البقرة ١٧٣ - المائدة ٣ - الأنعام ١٤٥ - النحل ١١٥) . بل رفع الإثم عن أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان (النحل ١١٦) . واشترك من اشتراك من المسلمات في الجهاد ، ممن يتصيدون أسماءهن في كتب التاريخ ، هو من باب الاستثناء الذي تدعو إليه الضرورة . وهو في كل الأحوال لا يتجاوز حدود الأعمال

التي تلائم المرأة كالتريض والخدمة خلف صفوف القتال • ومصدرُ الخطأ والخلط في ذلك كله ناشئ من وضع الاستثناء والشذوذ موضع القاعدة والأصل من ناحية ، واتخاذ أعمال الأفراد حجةً على الشرع نفسه من ناحية أخرى •

ومن أكبر ما يشغل المتزعمين لهذه القضية الخاسرة أنهم يجعلون أكبر همهم مصروفا إلى إثبات أن المرأة تستطيع القيام بأعمال الرجال • وأنها إنسانٌ مثله لا فرق بين عقلها وعقله • ويجاهدون أنفسهم في حصر الأمثلة التي تؤيد زعمهم ممن نبغ من النساء في مختلف العصور ، من المسلمات وغير المسلمات • وهو من الشذوذ الذي يُراد وضعه موضع القاعدة • وليس هو في كل حالٍ لبُّ المشكلة وصميمه ، ولا هو بالمقياس الصحيح في تقدير الخطأ والصواب في هذا الأمر • ولكن لبُّ المشكلة وصميمه هو: هل يؤثر اشتغال المرأة بعمل الرجل على إتقانها لعملها النسوي الأصل ؟ من الواضح أن عمل الأنثى الأول الذي خُلقت له هو النسل وحفظ النوع • لأن تركيب الذُكران العضوي لا يسمح لهم بحمل الجنين ولا بإرضاعه • وليس عبثاً أن خَلَقَ الله الذكر والأنثى • ومن الثابت أن إرهاق المرأة بالعمل يترك أثراً في مزاجها وفي أعصابها • ومن الثابت أيضاً أن هذا الأثر ينتقل إلى جنينها في حالة الحمل ، كما ينتقل إلى طفلها في حالة الإرضاع • بل إن بعض علماء الوراثة يتحدثون عن وراثة الصفات والأعراض الطارئة والغريبة على الأب والأم كليهما من آثار المخالطة في أثناء العُلوق والحمل ، ثم إن المرأة محتاجة بعد ذلك إلى أن توفر لها الفرصة الكاملة لملازمة طفلها ملازمة تسمح بأن يُصنَّع على عينيها جسماً وعقلاً وخلُقاً ، لكي تغرس فيه العادات الفاضلة وتجنّب ما قد يعرض له أو يطرأ عليه من عادات قبيحة • ومثلُ هذا لا يتأتى بالأمر أو النهى مرةً أو مرّات • ولكن لا بدُّ فيه من المراقبة الدائمة والإشراف القريب على تكرار الفعل حتى يرسخ في نفسه ، واليقظة على الزجر مرة بعد مرات عن بعض الأفعال الأخرى ، حتى يحالَ بينها وبين الرسوخ

في نفسه • وذلك كله لا يُغْنِي فيه الحَدَم ولا دُور الحَضَانَة غَنَاءَ الأم • لأن الإخلاصَ فيه والمحرصَ على ابتغاء الكمال من كل وجه لا يتوافر في أحدٍ توافره في الأم • والقولُ بأن كلَّ صلة الأم بولدها تنحصر في الحمل والوضع هو نزولُ بالإنسان إلى مرتبة الحيوان • فالإنسانُ يمتاز بطول حضانتِه لأولاده • وهى حَضَانَة لا تنحصر في توفير الغذاء والحماية كما هي في سائر الحيوان ، ولكنها حضانة خلقية وعقلية أيضا في الإنسان • وذلك من أهم الأسباب في تقدم البشرية ، لأنه يورثُ الجيل التالي تجارب الأجيال السابقة ، بما يَمكنُه من متابعة الشوط ، وتوفير الوقت والجهد الذى يضيع في تكرار التجربة •

ولو شئنا لقلنا بعد ذلك كله لأعداء المرأة وأعداء أنفسهم ممن جرى عُرْفُ الصحف والكتّاب في هذه الأيام على تسميتهم (أنصار المرأة) : إن المرأة لا تصلح للكد وممارسة الأعمال العامة صلاحية الرجل • لأنها بحكم تكوينها تحيض أسبوعا في كل شهر ، وهى حالة تكاد تكون مرضا عند بعض النساء ، تخرجها عن مألوف عاداتها • وهى بعد ذلك إن حَمَلَتْ ظلت تعاني في الشهور الأولى من حالة (الوَحَم) وما يلزمه من أسقام • ثم إنها تعاني في الشهور الأخيرة من ثقل الحمل الذى يُقَيِّد حركاتها حتى يكاد يشلها ، فإذا لم تكن المرأة العاملة متزوجة كانت مشغولة بالبحث عن الزوج ، معرضة للزلل والتفريط عند كل بارقة من الأمل في الظفر به • وهى لا تعدل عن ذلك ولا تنصرف عنه إلا لِعِلَّةٍ قد تكون شرا من البحث عن الزوج وأخطر •

ثم إن حياتنا الحديثة تقوم في كل شئونها ومختلف نواحيها على التخصص الدقيق الذى يتيح ذِقة المعرفة وجذقَ المِرَانَة لكل عاكفٍ على فرعٍ بَعِيْنِه • والتربيةُ الحديثةُ تحاول أن تكتشف مواهب الأطفال والصبية لتوجّه كلا منهم فيما يلائم استعدادَه وتكوينه • فلماذا نطبّق هذين المبدأين - التخصصَ والعملَ المناسب - في كل شيء ، ونأبى تطبيقهما في الرجل والمرأة ؟

ويستطيع كل ذى لب وبصيرة أن يدرك آثار الفشل الذى حاق بتجارب المجتمع الأوربي والأمريكي فى هذه الناحية ، مع أن هذه الآثار لم تبلغ بعدُ منتهى مداها ، ولا يزال سائر عقايلها فى الطريق • فهذا الجيل من التائهين والضائعين المحطمي الأعصاب والمُبْلَبِلِي الأفكار والقلقي النفوس ، وهذه النسبة الآخذة فى الارتفاع - حسب إحصاء الغربيين أنفسهم - للانحراف والشذوذ بكل ضروبه وألوانه ، هذه الظواهر كلها هي من آثار التجربة التى خاضها الغرب فى المرأة • لأن هؤلاء جميعا هم أبناء العائلات والموظفات ، الذين عانوا من إرهاق أمهاتهم وهم فى بطونهم ثم تعرضوا لإيهالهن بعد ان وضعنهم ، ثم لم يجدوا ما يردعهم عما تدعوهم إليه النفس من شطط ، فى ظل الأجواء التى تقدر الحرية فى كل صورها دون حدود • وقد كان هتلر على حق حين هداه تفكيره إلى حل كثير من مشاكل مجتمعه الألماني عن طريق عودة المرأة إلى البيت •

والعجيب من أمر هذه القضية الموهومة أن المرأة لم تقم فيها بالخطوة الأولى • ولم تحمل أعباءها فيما تلا من خطوات ، ولكن الرجال هم الذين قاموا بهذا العبء من بدئه حتى نهايته ولا يزالون • بل هم يعارضون الآن أشد المعارضة ما يبديه بعض العقلاء من الدعوة إلى مراجعة التجربة الفاشلة وعودة المرأة لميدانها الأصيل وهو البيت ، ويهاجمون الداعين إليه والداعيات أشد المهاجمة ، ويطلقون على الدعوة - استخفافا بعقول الناس - (العودة إلى عصر الحريم) • والقائمون بذلك والمتحمسون له أحد شخصين : مفتون بحضارة الغرب ، أعمته الفتنة عن اكتشاف عيوبها ، ثم لم يعصمه إيمان يشرح الله صدره للإسلام وتشريعه ، وطالب مُتَعَةٍ من غير وجهها الحلال وطريقها المشروع ، لا يريد أن يحرم نفسه متعة الحديث والنظر ، والأنس والسمر ، ولا أجاوز ذلك إلى ما وراءه •

والظلم فى القضية كلها حائق بالمرأة • كانت ريجانة تُشَمُّ فأصبحت مُشكِلا يتطلب الحل • وكانت عِرْضاً يُصان وأمانةً تُحْفَظ فأصبحت عَيْثاً يضيق به الأب والأخ

ويستحق معه على المرأة أن تعمل لتعيش • وماتت المروءة التي كانت تدفع إلى القيام بحقها ، والغيرة التي كانت سببا في المحافظة عليها • وأصبح القانون يلزمها بالعمل في النظام الشيوعي • وأصبح الواقع يلزمها به في النظام اللبرالي • وأصبحت التي لا تعمل لا تجد اللقمة ولا تجد الزوج • ولئن كانت المرأة قد خاضت معركة ظفرت فيها بحق العمل • فما أظن أن الوقت يطول قبل أن تخوض معركة أخرى أشق وأصعب للظفر بحق العودة إلى البيت •

وقد لا تكون هناك نصوص صريحة في القرآن أو السنة تمنع المرأة من العمل في خارج البيت لكسب عيشها حين تدعو إلى ذلك ضرورة • ولكن من المؤكد أن اتخاذ هذه القاعدة أصلا من أصول التنظيم الاجتماعي يخالف روح الشريعة ويناقض كثيرا من نصوصها ويتعارض مع كثير من شرائعها وحدودها تعارضا صريحا • فهو يدعو إلى إعادة النظر في التشريعات الإسلامية التي تتعلق بقوامة الزوج والميراث وبالنفقة ، لأنها جميعا مبنية على أن الرجل هو الذي يعمل ، وهو المكلف بالإنفاق • ويجب أن يكون واضحا أن قوامة الرجل على المرأة لا تقتضى تفضيله عليها في الدين أو الدنيا • ولكن هذه القوامة قاعدة تنظيمية تستلزمها هندسة المجتمع واستقرار الأوضاع في الحياة الدنيا • ولا تسلم الحياة في مجموعها إلا بالتزامها • فهي تشبه قوامة الرؤساء وأولي الأمر ، التي لا تستلزم أن يكون الرؤساء أفضل من كل المحكومين • ولكنها مع ذلك ضرورة يستلزمها المجتمع الإنساني ، ويأثم المسلم بالخروج عليها ، مهما يكن من فضله على ولي الأمر في العلم أو في الدين • والسلام عليكم ورحمة الله •



الأدب في ميدان الصراع بين القديم والجديد

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

تعددت وجوه أزمة العصر وتباينت مظاهرها وتشعبت ميادينها • وكان من بين هذه الميادين ميدان قلما التفت عامة الناس إلى حقيقة خطورته وقلما قدروها حق قدرها ، وهو ميدان اللغة والأدب • في هذا الميدان جرت معارك وصراعات اتخذت في أكثر الأحيان عنوانا ظالما للتراث وللداعين إلى المحافظة عليه وهو (القديم والجديد) • أطلقوا على كل ما يتصل بترائنا من قيم دينية وخلقية وأدبية اسم (القديم) • وفي مقابل ذلك سمو كل طارئ مُستجلب مما شاع عند الغرب ، ومما رث وبلى من أنماطه في بعض الأحيان ، باسم (الجديد) • والقديم يوحى بالبلبلى وبالهرم وبالحاجة إلى الترفيع والترميم والإصلاح والتقويم • بينما كان اسم (الجديد) يوحى بالبهجة والبشاشة والرؤاء والنشاط وتدفق الشباب • لذلك كان العنوان وحده داعيا لصرف الشباب عن كل ما يتصل بالتراث ، وإقباله على كل بذعٍ مُستطرف غريب • كانت المعارك التي دارت في هذا الميدان ذات شقين ، أحدهما يتصل بأساليب الأدب وموضوعاته ومذاهبه ، والآخر يتصل بلغته • ولنبدأ حديثنا بالجانب الذي يتصل بالأدب •

شُغِفَ الناس في هذه الفترة بالكلام عن أدباء الغرب ومفكري الغرب وساسة الغرب ، حتى أصبح العلم بتاريخهم وآدابهم هو وحده آية التبحر في الثقافة ، وأصبح الاستشهاد بالقول المنسوب لأحد الغربيين ، أى واحد منهم ، هو فصل الخطاب ، وهو الحجة المُسَكِّتة التي ينقطع بها جدل المختصمين • وأوشك الأمر أن يبلغ بالناس حد المرض ، حتى لقد ضاق به بعض دعاة الجديد أنفسهم • وهذا هو محمد عبد الله عنان يضع يده على موطن الداء ، منبها ومحذرا ، فيقول :

« شَغِفَ فريق من كتابنا الأحداث بالكتابة في الأدب الغربي وأطواره ومناحيه شغفاً يملك عليهم كل شيء • وترى لهم في كل يوم حديثاً عن (الدراماة) و (الرومانتيزم) و (المذهب الواقعي) ، أو عن (برناردشو) و (أوسكار وايلد) و (ترجنيف) (دِستويفسكي) و (إبسن) ، وهكذا ، في سلسلة حافلة لا تنتهى من موضوعات الأدب الغربى وأقطابه ، في كل عصر وأمة ... وهؤلاء الذين يطربهم رنين الأسماء الغربية والموضوعات الغربية ، ويقفون أوقاتهم على درسها وتناولها ، هم أقلُّ الناس تزوداً بأداب اللغة التى يخرجون بها مباحثهم ، ويزعمون أنهم يحاولون إحياءها وتجديدها ، بما يكتبون عن (الدراماة) و (الرومانتيزم) وعن (ترجنيف) و (برناردشو) • وهم أكثر الناس جهلاً بما يموج به تراث العربية من كنوز البيان والأدب ، وبما يَعْصُ به ثَبْتُ كتابها ومفكرها من الأساتذة في كثير من فنون التفكير والأدب • وفيها أسماء أوفر ريننا وأحق بالدرس من كثير ممن يُشغَفَ اليومَ كتابنا الفتيان بدرس شخصياتهم واستيعاب آثارهم وقد يُعْنَى فريق من كتابنا الشبان ببعض المواضيع الجدّية ويكتب فيها • ولكن هذه العناية لا تصطبغ أبداً بصبغة عربية في أيّ من النواحي التى تقصدها • فهم إذا كتبوا في التاريخ كتبوا عن الثورة الفرنسية ، أو الوحدة الإيطالية ، أو نابليون ، أو كرامويل ، وإذا قصدوا الاجتماع والسياسة كتبوا عن مكيا فيللى وموئيسكيو • وإذا كتبوا عن الاقتصاد كتبوا عن أمم ومسائل غريبة محضة • وهكذا » •

ويختتم الكاتب مقاله بأن يطلب تحرير حياتنا وأدبنا من النزعة الجديدة التى تريد أن تقطع حاضر مصر عن ماضيها ، وأن تجعل دراسة مصر مقصورة على هذا العهد الأخير ، والتى ترمي « إلى صبغ تاريخ هذا العصر بصبغة معينة ، يوحى بها اليوم إلى أقلامٍ مصرية وغربية ، وتُفَرَضُ اليومَ على طلبة المدارس » •

وهذا هو سامى الجريدينى - وهو معدودٌ في المتطرفين من أصحاب الجديد - يردُّ على طه حسين حين هاجم (شوقى) وانتقص من قدره ، ناعياً عليه تقصيره في معرفة

الأدب الفرنسى الجديد والفلسفة الفرنسية الجديدة • فيقول ، متسائلا : هل يصح لشاعرٍ عربى أن يتخذ الأدب الفرنسى معيارا لشعره ؟ وهل يجوز لنا نقد فرنسى مثلا أن ينتقص من شعر (بودلير) لأنه لم يتتقف بالثقافة الانجليزية-الممثلة فى (كبلنج) وفى (برناردشو) ؟ ثم يبين أنه لا ينبغى أن يطلب من الشاعر إلا أن يكون على حظ من الثقافة العامة • وليس يجوز أن يطالب بعد ذلك بالإغراق فى التخصص • ثم يقول :

« ونحن لا نفهم مثلا أعلى للشعر إلا المثل الأعلى للأمة التى يقال بلسانها الشعر • فالشاعر الذى يتجرد عن مثل أمته الأعلى ، ويتفحص مثلا أعلى فى غير أمته ، قد يعد من كبار الفاتحين ، ولكنه لا يحسب فى عداد عظماء الشعراء » • وكانت المعركة عند مصطفى صادق الرافعى فى حقيقة أمرها هى معركة بين الذين يحافظون على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ، وبين الذين عادوا من أوروبا وقد فتنتهم بريقها ، فاستخفوا بكل تراثهم وراحوا ينفرون الناس منه • ويشبه الرافعى أنصار الجديد برجل اسمه أبو خالد النميري ، تروى كتب التاريخ أنه كان قد وُلد فى البصرة ونشأ بها فى القرن الثالث الهجرى.. ثم خرج إلى البادية فأقام بها أياما يسيرة ، وعاد بعد ذلك يتجافى فى ألفاظه ويتكلف لغة الأعراب ، حتى لقد يُروى أنه رأى الميازيب على سطوح الدور فأنكرها وقال : ما هذه الخراطيم التى لا نعرفها فى بلادنا ؟ والرجل إنما ولد فى البصرة ونشأ بها ولم يُقم فى البادية إلا أياما • ذلك هو مثل أنصار الجديد عند الرافعى « فتعرف منهم أبا خالد الإنجليزي ، وغيرهم ممن أجازوا إلى فرنسا وإنجلترا فأقاموا بها مدة ، ثم رجعوا إلى بلادهم ومُنبتهم ينكرون الميراث العربى فى لغته وعلومه وآدابه ، ويقولون : ما هذا الدين القديم ؟ وما هذه اللغة القديمة ؟ وما هذه الأساليب القديمة ؟ ويمرّون جميعا فى هدم أبنية اللغة ونقض قوامها وتفريقها • وهم على ذلك أعجزُ الناس عن أن يضعوا جديدا أو يستحدثوا طريقا أو يبتكروا بديعا » •

وينقل الرافعي من إحدى الصحف العربية التي تصدر في (طنجة) ما يصور به مبلغ كيد الاستعمار للإسلام في لغته • وذلك هو قول هذه الصحيفة في تاريخ الكعبة : « زيارة الكعبة المعظمة فريضة على كل مسلم ومسلمة • ولو عندهم استطاعة صحية ومالية • ومن مناسك الحج : سبع مرات طواف حول الكعبة • كل عام في المحل المقدس المذكور يجتمع ٢٠٠,٠٠٠ من المؤمنين والمؤمنات هم الحجاج الكرام ، لا بسين كلهم كسوة بيضاء ، وسامعين الخطبة لفتى الأنام في جبل عرفات ، لييك اللهم لييك • الكعبة مبنية من طرف إبراهيم خليل الله ، ولكن بمرور الدهر والأزمان وبتأثير سيلان الأمطار قد خربت مرارا • ولكن تصلحت من موادها القديمة وأحجارها الابتدائية • وحجر الأسود موضوعة بحلها بيد المبارك المحمدية ... نظرا للتواريخ القديمة إن ماء زمزم خرجت من ضربة قدم سيدنا إسماعيل • ومن المعاني والمعالى ... زيارة بيت الله المقدس أهم المادة هي اجتماع مسلمين العالم في كل سنة في الأراضي المقدسة الحجازية بتأييد الولا والمخالصة بين عالم الإسلامي » •

والرافعي يعجب لعجمة الكاتب « مع انه يكتب كلاما لم يبق منه معنى ولا لفظ ولا صيغة إلا وردت في الكتب المختلفة بأفصح عبارة وأبلغ أسلوب ، بل هو من بعض دين ذلك الكاتب » •

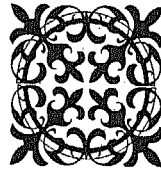
ويروى شكيب أرسلان في هذا الصدد قصة غريبة عن أحمد فارس الشدياق تصور محاربة الاستعمار للغة العربية وأساليبها الأصيلية • ذلك أنه كان يعرب التوراة وهو في إنجلترا • فكان يقف على الترجمة العربية قسيس إنجليزى تعلم شيئا من العربية ، فكان كلما رأى للشدياق جملة تُشتم فيها رائحة الفصاحة مسخها ، واستبدل بها جملة ركيكة • فكان الشدياق يعجب من أمره ومن قلبه العالي بالساقط ، والجيد بالردل ، تعمدا ، ويصرح بأنه إنما كان يتوخى بذلك إبعاد الكلام عن شبه القرآن • ويخلص أرسلان من هذه القصة إلى أن هذه الفئة من المستترين خلف الدعوة إلى التجديد « لا تحارب اللغة العربية نفسها ، ولكنها تحارب منها القرآن .. القرآن » •

وكان من بين ما اتجه إليه أصحاب الجديد فيما استحدثوه في برامج التعليم إهمال أدبنا القديم وتوجيه أكثر العناية إلى الأدب الحديث المعاصر ، بل التافه منه في الأعم الأغلب ، وتجنب ما كان منه على منوال القديم جزالةً وروعةً وفخامةً أسلوباً واحتفالاً بالمعاني الكبار . وأضافوا إلى ذلك اهتمام كل بلد من بلاد العرب بأدبائه وشعرائه ومفكره على وجه الخصوص ، مما يوجد لونا من العصبية الإقليمية في الدراسات الأدبية ، تفرق العرب والمسلمين فيما كانوا يجتمعون عليه من الإلمام بتراث أدبي مشترك يتمثل في شعراء القرون الأربعة الأولى من الإسلام ، التي تنتهي بالمتنبى . وربما امتدت إلى المعري بعد ذلك بقليل .

وكانت القصة من أبرز ما استحدث من فنون الأدب بعد الحرب العالمية الأولى . ولم تلبث أن طغت على سائر فنون الأدب ، حتى أخذت الشعر أو كادت . ورحبت بها الصحف على اختلاف ألوانها ، وجعلها الكثير منها بابا من أبوابها الثابتة ، استجابةً لرغبة جماهير القراء ، الذين أقبلوا عليها إقبالا شديداً . وساعد على رواجها بروز المسرح في صدر هذه الفترة ، ثم ظهور الخيالة (السينما) وتقديم صناعتها . وأعان على هذا الرواج سهولة تذوق القصة ، إذ أن فهمها والاستمتاع بها لا يكدر ذهن القارئ ، ولا يحتاج لإعداد خاص أو تثقيف طويل كما هو الشأن في سائر الفنون الأدبية ، والشعر منها بخاصة . وهى مع ذلك أكثر ملاءمة للشباب ، لأنها أقدر على توفير الأجواء الحاملة التي تلائم سن المراهقة خاصة . مما يجعلها أقوى الفنون الأدبية تأثيراً عليه وأخطرها في توجيهه . وقد زاد في خطورتها سهولة تناولها وصعوبة التمييز بين الجيد منها والردىء على غير العارفين من العلماء وناضجي التفكير . فما أسهل أن يملأ الكاتب ، أى كاتب ، أى حامل قلم ، صفحاتٍ وصفحات ، وكتباً وكتباً ، يقال وقالت ، وبحكايات ملفقة مما يستطيعه المثقفون وغير المثقفين ، لا سيما بعد أن هجر الناس اللغة الفصيحة التي لا يستطيعها إلا المثقفون ، إلى لغة الأسواق التي لا يتميز فيها عالم من جاهل ، باسم الواقعية وباسم الشعبية . لذلك ، ولما

لمؤلف القصة من حرية واسعة في تصريف أحداثها ورسم شخصياتها ، أصبحت من أخطر الأدوات تأثيراً في المجتمع • وتجرباً على كتابتها القادرون وغير القادرين ، والناضجون من أصحاب المواهب والتافهون من الأغرار والجهال • واندس بين هؤلاء كثير من مرضى النفوس ومن ذوى الأهواء ، ومن ينقلون حين يترجمون أسوأ ما قرءوا من قصص الغرب الرخيصة المبتذلة ، ولا يتكلفون حين يؤلفون أكثر من تغيير الأسماء • وبذلك أصبحت القصة معرضاً للنماذج المنحرفة الشاذة المثيرة لأخط الغرائز ، وتعبيراً عن أمراض النفوس وانتكاس المعايير والتنفيس عن الشهوات •

وفي تأثير هذا القصص الماخن على الشباب يقول محمد توفيق دياب :
« قد يعبس الفتى أو الفتاة حيناً إذا قرأ أو قرأت مجوناً جريئاً عرياناً • ولكن إذا ألفت العين والنفس أمراً كان مبعثاً للحياء أمس فقد لا تلبث العين والنفس أن تنزعاً إليه وتطلباه • فإذا فقدت النفس نفورها من قراءة المخازي وتصور معانيها ، فقد هانت عليها المرحلة التالية ، وهي التلبس بهذه المعايير سلوكاً وعملاً • وإذا فعلى الصون والعفاف ألفت عفاءً » •
والسلام عليكم ورحمة الله •



اللغة في ميدان الصراع بين القديم والجديد

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله • وبعد

كان كل مادخل على العربية من فساد ، وما دخل على الشباب من بلبلية واضطراب ، قد أدى إلى ضعف شديد في لغة القوم • ثم زعم الزاعمون للناس ، وللناشئة من الشباب على وجه الخصوص ، أن هذا الضعف يعود إلى سببين : أحدهما فيما يزعمون هو أن اللغة العربية لغة صعبة معقدة لا يشبهها في تعقيدها شيء من لغات الناس • والآخر هو أن العرب بين سائر أمم الأرض يُعانون من ازدواج ناشئ من أنهم يفكرون ويتعاملون بلغة عصرية عملية ، ثم ينقلون هذا التفكير إلى لغة أخرى قديمة معقدة حين يكتبون أدبهم وحين يسجلون علومهم • وقد تفرّع عن هذين الزعمين عدة شُعب • ففي الزعم الأول الذي يدّعى صعوبة اللغة العربية قالوا إن صعوبتها ناشئة من أنها لغة مُعرّبة ، فاقترح بعضهم التخفيف من قيود الإعراب بتسكين أواخر الكلمات ، أو الاحتفاظ بالمهم من قواعد الإعراب والاستغناء عما دون ذلك • وذهب آخرون إلى أن الصعوبة آتية من قواعد اللغة العربية ومن طرق تدريسها ، وليس مصدره اللغة نفسها بطبيعة تكوينها • فاقترحوا إعادة النظر في قواعد اللغة العربية : نحوها وصرّفها ، وإعادة تبويبها وتشكيلها • وقال آخرون إن الصعوبة آتية من خطها لأنه لا يُثبِتُ صور الحركات في صُلْب رسم الكلمة • وقال قائلهم في ذلك الكلمة المشهورة المنسوبة إلى قاسم أمين (كل الناس يقرءون ليفهموا ، والعربى يفهم ليقراً) • وهذه العبارة ، ككل حججهم ليست من صنعهم • ولكنها تريد لما جاء في كتاب سِپْتَا Spitta (قواعد العامية العربية في مصر Grammatic des Arabischen von Aegypten) ومن هنا جاءت كل الاقتراحات التي تتعلق

بالخط • بعضها يقترح إثبات الحركات وتصويرها في رسم الكلمات • فتُكتب (محمد) موحاممدون في حالة الرفع ، مع إثبات حركات الإعراب : (ان) في النصب ، و (ين) في الجر • وبعضها يذهب في الغلو والشطط إلى الدعوة إلى أن تتخذ الحروف اللاتينية كما فعل الكهاليون في تركيا •

أما الزعم الثاني الذي يرمينا بالازدواج ، ويدّعى أننا نفكر بلغة عصرية عملية ثم نترجم هذا التفكير إلى لغة أخرى قديمة معقدة ، فهو وجهٌ من وجوه الزعم الأول وظاهرة من ظواهره • وأصحابه يدّعون أن اللغة العربية لغة ميتة معزولة عن التفاعل مع الحياة ومسايرة تطوراتها ، وعاجزة عن الصلاحية لتدوين العلوم والمعارف الحديثة ، ووضع الأساء لمستحدثات الحضارة العصرية • وأن الازدواج المزعوم يعطل ملكاتنا ويشلّها ويعوق انطلاقها • وهو عندهم من بين أسباب تخلفنا وعجزنا عن الابتكار • ولم يكن صحيحاً ما زعموه من تفرد اللغة العربية بالصعوبة والتعقيد بين اللغات الحية المعاصرة • والذي أَلَمَّ باللغة الألمانية أدنى إلمام يعرف أن حالات الإعراب فيها تفوق العربية في تعدُّدها وصعوبتها وتعقيدها • والذي أَلَمَّ بالفرنسية يعرف أن الفعل فيها يفوق الفعل في العربية صعوبةً في تفرّعه وفي تصريفه وفيما يطرأ على آخره من زيادات • والذي يدرس اللغات التي فقدت ظاهرة الإعراب كالإنجليزية يعرف أن نَظْمَ الكلمات في تعبيراتها ، واستعمال الحروف والأفعال في مواضعها الصحيحة يفوق صعوبة الإعراب في بعض اللغات الأخرى •

واقترح صانعو المشاكل لحل ما زعموه من مشكلات أن نكتب آدابنا ونُدوّن علومنا باللهجة التي نتكلمها ونتعامل بها • وضربوا اللغة اللاتينية مثلاً • فقد ظل الأوربيون يدوّنون بها علومهم ويكتبون بها آدابهم طوال العصور الوسطى ، بينما هم يستعملون في معاملاتهم وفي حديثهم اليومي لهجات تختلف باختلاف بلادهم • إلى أن جاء عصر النهضة فَعَدَّلُوا في تدوين آدابهم وعلومهم عن اللاتينية الميتة إلى اللغة الحية التي كانوا يتكلمونها • ونشأت عن ذلك اللغات الأوربية الحديثة • وقد كان

اتخاذ هذه اللغات الحديثة ، الذى أعفاهم مما كانوا يعانونه من الازدواج ، من بين أسباب النهضة فى زعمهم •

ولقى هذا الاقتراح رواجاً فى القصة والمسرحية على وجه الخصوص • فأصبح أكثر ما نسمعه منها وما نراه فى المسارح وفى الإذاعات مدوّناً بهذه اللهجات العامية فى كل بلاد العرب • ثم أصبحت المرافعات فى المحاكم والمناقشات فى المجالس النيابية والخطب السياسية الرسمية تُلقَى وتُدوّن بهذه اللهجات • ونشأ عن هذا الواقع الجديد فى أقسام اللغة العربية ومعاهدها دعوة إلى دراسة اللهجات العامية وتدوينها وإستنباط قواعد تسجيل ظواهرها وتكشف عن طبيعتها وطرائقها فى التعبير • ونشأ عنه أيضاً دعوة إلى دراسة ما سجّل من أدب العامة الذى يسمونه (الأدب الشعبى) • ووجدت هذه الدعوات طريقها إلى التنفيذ فى بعض الجامعات والمعاهد العربية •

وهذه المزاغم والتوجيهات كلها من صنع الاستعمار فى مختلف بلاد العرب ، لم يُسمَعْ لداعٍ بها صوتٌ قبل القرن الأخير • بدأت الدعوة بمقال نشرته مجلة (المقتطف) سنة ١٨٨١ م اقترح فيه كاتبه كتابة العلوم باللغة التى يتكلمها الناس فى حياتهم العامة • ثم هاجت المسألة من جديد حين ألّف القاضى (ولور) كتاباً فيما سماه (لغة القاهرة) سنة ١٩٠٢ م واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب واقترح كتابتها بالحروف اللاتينية • وتتابعت الكتب التى ألّفها المستشرقون فى تسجيل اللهجات العربية المختلفة وتدوين قواعدها • ولاكّ الناسُ كلامهم من بعدُ فرددوه ترديد الببغاوات • ووجد فيه الجيل الناشئ من شباب العرب عذراً يعفيهم من التحصيل ، وحجةً تبرّر ضعفهم فى لغتهم التى تجتمع فيها صفتان لاتجتمعان فى لغة من اللغات المعاصرة هما : الدينية والقومية • وانتهى الأمر بالناس إلى اتخاذها موضوعاً للسخرية والدعابة والفكاهة فى مسرحياتهم ومجلاتهم وأسماهم ، يضعونها على ألسن الذين يقومون بتمثيل معلّم العربية أو المنتسب للدين ، ويختارون لهم أسخف الكلمات

وأكثرها غرابة وحوشية وتَفَعُّرا لتبدو كأنها دوى المدافع والقنابل في حديقة للورود والرياحين .

في ظل هذه الدعوات والمزاعم كتب حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة ، التي يقول فيها ، متحدثا بلسان اللغة العربية :

رجعتُ لنفسي فاتَّهَمْتُ حَصَاتِي	وناديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي
رمَوْنِي بِعُقْمٍ في الشباب ، وليتنى	عَقِمْتُ فلم أجزعُ لقول عُدَاتِي
وَلَدْتُ ، ولما لم أجِدْ لعرائسي	رجالا وأكفاءً وأدتُ بناتي
وسِعْتُ كتاب الله لفظًا وغايةً	وما ضِيقْتُ عن آيٍ به وعِظَاتِ
فكيف أضيق اليومَ عن وصف آله	وتنسيق أساءٍ لمخترعات ؟
أنا البحر ، في أحشائه الدرُّ كامنٌ	فهل سألوا الغواص عن صدَّقَاتِي ؟
فياويحكم ! أبلى وتَبَلَى محاسني	ومنكم - وإن عَزَّ الدَّواءُ - أساتي
فلا تكلوني للزمان ، فإنني	أخاف عليكم أن تَحِينَ وفاتي
أرى لرجال الغرب عِزًّا ومَنْعَةً	وكم عَزَّ أقوامٌ بِعِزِّ لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تَفَنُّنا	فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أُطْرِبكم من جانب الغرب ناعب	يُنَادِي بوأدى في ربيع حياتي ؟
ولو تَرْجُرُون الطيرَ يوماً عرفْتُمُو	بما تحته من عَثَرٍ وشتات
سَقَى الله في بطن (الجزيرة) أعظما	يَعِزُّ عليها أن تلين قناتي
حِفْظُن رِدَادِي في البلى وحِفْظَتُهُ	لهن بقلبي دائم الحسرات
وفاخرتُ أهل الغرب ، والشرقُ مُطْرَقُ	حياء ، بتلك الأعظم النُّخِرَات
أرى كلَّ يومٍ (بالجرائد) مَرْلَقًا	من القبر يُذْنِني بغير أناة
وأسمعُ للكُتَّاب في مصر ضجة	فأعلم أن الصائحين نُعَانِي

وقد كان من أعجب العجب أن تظل العربية الفصيحة جامعة لشمل العرب ومصاحبة لهم ومؤدية لوظيفتها أكمل أداء في كل حواضرهم التي انتقلوا إليها على

اتساعها وتنوعها ، وعلى كثرة ما أبدعوا من علوم وفنون ، لا يخطر ببالهم عجزها أو قصورها في أى ميدان من هذه الميادين • ثم يكتشفون فجأة بعد ثلاثة عشر قرناً مشكلاتٍ في كلماتها وفي قواعدِها وفي خطها ، يتعذر معها أن تستمر في الحياة • ولم يكن للدعوات التى بلبت فكر الناس وزعزت يقينهم وإيمانهم إلا هدفٌ واحد يسعون إليه من كل وجه وبكل وسيلة • وهو محاربة الفصحى والتخلص منها ، دفعةً واحدة إن أمكن ، وبالتدرّج إذا استعصى ذلك • فهم تارة يدعون إلى العامية دعوة صريحة • وهم تارة أخرى يدعون إلى التوسط بين الفصحى والعامية • وتارة يدعون إلى فتح باب التطور في اللغة ، والاعتراف بحق الكتاب في تغييرها كيفما كان هذا التغيير وإلى أى مدى ذهب • وتارة يدعون إلى إسقاط أبوابٍ معيّنة من النحو ، أو تعديل بعض قواعده • فإذا لم ينجحوا في شيء من ذلك اكتفوا بالدعوة إلى دراسة اللهجات العامية وحصر مفرداتها وأساليبها ووضع القواعد والمعاجم لضبطها وإحصائها ، أو الدعوة إلى أن يقتصر كلُّ بلدٍ عربى من الفصحى على المستعمل في لهجته المحلية • وبذلك يصبح لكل بلد عربى معجم لغوي خاص • وقد تصور بعضُ السُّدَج أو الدُّهاة - لا أدري - أن العلاج الذى نستهدفه هو توحيدُ العامية والفصحى وجعلها لغة واحدة • وهو خطأ أساسى في تصور الموضوع • فليس مطلوباً أن تصبح لغة الحديث والأسواق والتعامل بين الناس هى نفسها لغة الشعر والأدب والعلم والفلسفة • لأن التعامل يحتاج إلى لغةٍ سريعة الوفاء بالغرض • ولكنه لا يحتاج إلى لغة دقيقة كحاجة العلم إليها • ولا يحتاج إلى لغة جميلة مؤثرة كحاجة الشعر والأدب عموماً إليها • إذ يكفى في لغة التعامل أن يفهم بعضُ الناس عن بعضٍ من أقرب طريقٍ وأخصره • ومن الواضح أن لغة الأسواق لا تناسبها لغة راقية معقدة ، لأن قواعد اللغة الراقية تضيق وقت المتعاملين الذين لا يحتاجون للدقة أو الجمال حاجتهم إلى السرعة • فاستعمالهم الفصحى في التعامل إسراف في التأنيق وبعثرة للجهد وتضييع للوقت ، لا يصبر عليه البائع ولا المشتري • ثم إن اللغة الراقية التى تنظمها القواعد الثابتة لا تصلح لحاجات الحياة اليومية من

وجه آخر • فقواعد اللغة الفصحى تجعل تطورها بطيئاً وصعباً ، بينما لغة التعامل والأسواق تسد حاجات متغيرة يطرأ عليها كل يومٍ جديدٍ لم يكن بالأمس • أما لغة الأدب فهي سبيلٌ لحالات عقلية ونفسية ثابتة متصلة ، من الخير أن نحرس فيها على صلة الخلف بالسلف إلى أبعد مدى ممكن • ومن هنا يبدو كذبُ دعوى الازدواج • فلغة الأسواق شيء ولغة الأدب والعلم شيء آخر • وكلُّ منهما صحيحة في ميدانها • وهذه ظاهرةٌ مطردةٌ التحقق وال لزوم في كل اللغات ، قديمها وحديثها ، شريقها وغريبها • وليست العربية يدعاً في ذلك كما يدعون • ولو اتخذت لغة الأسواق لغةً للأدب على ما يريده الخادعون والمخدوعون فتطورت وارتقت ، لنشأ إلى جانبها حتماً لغةٌ أخرى للأسواق تنحرف من قواعد اللغة الأدبية وقواعدها • وذلك هو ما حدث بعد أن انفصلت اللهجات المحلية عن اللاتينية وأصبحت لغاتٍ مستقلة • فلم يمس على ذلك وقت طويل حتى تطورت هذه اللهجات ونضجت وارتقت ثم خلفت وراءها لهجات عامية جديدة •

أما الأدب الشعبي فحقيقته الأصيلة أنه أدب سطحي بسيط ، يغلب عليه الارتجال والعفوية ، ويلائم السذج من عامة الناس • ولكنه لا يشبع حاجات المثقفين وطلاب المعرفة من أصحاب الفكر الرفيع والذوق الصافي الصقيل • وقد يصلح أن يكون فاكهة تُساق لهم يجدون المتعة في تصويره الصادق لسذاجة البيئات التي نشأ فيها • وهو صحيح في موضعه لا يُغني غنائه فيه شيء • ولكنه في كل حال لا يُغني عن الأدب الفصيح الذي يصور فكراً أعمق ، وصنعة أدق وأحكم ، ولغةً أبقى على الأيام وأدوم • ومن الخير للأدب الشعبي أن يظل في مكانه الصحيح كما كان دائماً ، أدباً شفوياً يعتمد على الرواية • ولا خير في تسجيله • لأن لغته متغيرة غير ثابتة ، تؤدي وظيفتها لأجلٍ محدود ، ثم تموت ، وتحل محلها مفردات وأساليب جديدة من وحي ظروف جديدة • فالدعوة إلى تسجيله لا تخدم إلا هدفاً واحداً ، هو مزاحمة الفصحى ومحاربتها وإعداد البديل الذي يحل محلها إذا حان الوقت • وهيهات • والسلام عليكم ورحمة الله •



رد على دعاة تطوير اللغة وتطوير الخط

الحمد لله • والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وبعد ..

ليس في مزاعم أعداء اللغة العربية جديد • فهم يكررون ما بدءوا به ولا يضيفون إليه جديدا • ويعتمدون في أسلوبهم على أن الناس إذا تكرر سماعهم للباطل أوشكوا أن يصدقوه • لذلك فهم يكررون القول حيناً بعد حين ، ودفعة بعد فترة ، لا يسأمون من التكرار ولا يملّون • ولذلك كان فرضاً لازماً على أصحاب الحق أن لا يملّوا من تكرار الرد عليهم رُكونا إلى أنهم قد أذاعوه من قبل ، حتى لا تنفرد دعايتهم المفسدة بالشباب فتستأثر به ، ثم لا تجد ما يصححها وما ينتشله من البلبلة والتمزق والحيرة التي تتسم بها (أزمة العصر) •

والرد على ما ساقه أعداء العربية وأعداء أنفسهم يتلخص فيما يلي :

١ - إن عامة المسلمين وخاصتهم لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث وسائر كتب الدين •

٢ - ليست العربية غريبة على أفهام العامة إلا إذا أريد التفقّر واستخدام الألفاظ الغريبة • أما لغة الإنشاء العصرية فهي شائعة في الصحف والمجلات والكتب ، يفهمها الخاص والعام •

٣ - لا يجوز قياس العربية على اللاتينية • لأن الفرق بين اللاتينية وفروعها أبعد كثيراً من الفرق بين العربية الفصحى وفروعها العامية • فالعامي الإنجليزى والفرنسي ينظر إلى اللاتينية نظرتة إلى لغة غريبة • أما العامي العربي فإنه يفهم الفصحى • وإذا فاته فهم بعض الألفاظ فإن المعنى الإجمالى يندر أن يفوته •

٤ - الزعم بأن اللغة العربية يدُخ في اللغات ، بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن اللهجة المحكية زعم باطل . فلكل أمة لغة للعلم والثقافة والأدب تختلف عن لهجة الحديث والأسواق . وكذلك كان الشأن في العربية منذ الجاهلية . فكان للعرب لغة أدبية موحدة يكتبون بها أشعارهم غير التي يتحدثونها في أسفارهم وفي معاملاتهم ، والتي ربما استعملوها في أدب محلي يتمثل في أرجازهم . وهذا هو السبب في إهمال كتب الأدب للرجز واحتقارها له وتسميته (حمار الشعر) . وهو السبب أيضا في ترفع الشعراء الكبار عن تناوله بعد أن يذيع صيتهم وتعلو مكانتهم . فتجاوز لغة الأدب ولهجة الحديث أمر واقع وظاهرة طبيعية . وكل منها صحيح في ميدانه .

٥ - القائلون بأن يتخذ كل بلد عربى لهجته العامة هم القائلون بانحلال العالم العربى وتشتيت شمل الذين يتكلمون العربية من العرب والذين يقدسونها من المسلمين . وقد أصبح واضحا للمسلمين وللعرب أن عليهم أن يختاروا بين أن يكونوا يدا واحدة على عدوهم ، أو يكون بأسهم بينهم ثم يصبحوا طعاما لذلك العدو . وبين أن تكون علاقاتهم بأبناء جنسهم علاقة أخوة ، أو تكون علاقاتهم بالأجنى علاقة عبودية وتبعية . لأن الصداقة لا تكون إلا بين الأكفاء والمتناظرين .

٦ - القواعد النحوية التى يزعمون أنها معقدة قد استطاعت أن تعيش أكثر من ألف سنة ، أنتج الناس خلالها في مختلف الأمصار الإسلامية ثروة من الكتب العربية الصحيحة لا تحصى . وهذه القرون المتطاولة أصدق شهادة لصلاحية النحو من كل ما يزعمون . فهذه القواعد النحوية قد فرضتها صلاحيتها . ولم تفرضها قوى قاهرة كالقوى التى تفرض باطل أصحاب هذه المزاعم وتروج له . وعليها قامت النهضة الأدبية الحديثة . ومن المحقق أن الجيل السابق الذى نشأ على توفير قواعد اللغة وإتقانها خير من هذا الجيل الذى لا يزال يتقلب بين مشاريع وتجارب للتبسيط والتيسير ، تحتاج إلى ألف عام لكى تثبت أنها لا تقل عن القواعد التى يُفتَرَح الاستغناء عنها ، فضلا عن أن تفضلها أو ترجح عليها .

أما الدعاوى التى تتصل بالخط العربى فيتلخص الرد عليها فيما يلى :

١ - ليس من السهل إعادة طبع التراث العربى - وعمره يزيد على أربعة عشر قرناً - بالحروف الجديدة • سواء كان ذلك فى العرب أو فى غيرهم من البلاد التى كتبت آدابها وعلومها بالحروف العربية •

٢ - لو هجرنا الحروف العربية إلى حروف تخالفها لُئسيت الآداب والعلوم القديمة ، كما تُسَيِّت آداب الهيرغليفية والبربرية والفينيقية والفارسية القديمة ، وغيرها من آداب اللغات الأخرى التى لا يستخدم الناس حروفها الآن ، ولأصبح بيننا وبين تراث أجدادنا سدٌ منيع تعانیه الأجيال المقبلة كما نعانیه نحن فى تلك اللغات • فاللغات التى جَلَّت الحروف العربية فى كتابتها محل حروفها القديمة كالتركية والفارسية والأردية وغيرها ، قد تُسَيِّت آدابها القديمة وأصبح بينها وبين آدابها الإسلامية حلقة مفقودة •

٣ - الخط العربى موافق لطبيعة اللغة العربية • ولو أردنا استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتحتم علينا إيجاد حروف جديدة نضيفها إلى الأبجدية اللاتينية الحالية ، لكى تعبر عن الأصوات العربية التى لا تمثلها الحروف اللاتينية ، مثل : ج ، ح ، خ ، ش ، ط ، ظ ، ص ، ض ، ع ، غ ، ولاحتجنا إلى التمييز بين الحروف المتحركة الممدودة وبين الحروف المتحركة القصيرة ، لنميز الفتحة من الألف والكسرة من الياء والضممة من الواو •

٤ - محاكاة العرب للترك فى هذا الصنيع تقليد أعمى • لأن سبب هذا التغير عند الترك سياسى • وهو محاربة العنصر العربى والدين الإسلامى • فهم يريدون أن يزعموا أن المدينة التركية مدنية عريقة تتصل بالمدينتى البابلية والآشورية القديمة • ولا اتصال لها بالتمدن الإسلامى • ولذلك اقترن هذا التغير بكثير من الظواهر المؤدية إلى الغرض نفسه •

٥ - ليس من السهل أن يتفق العرب والمسلمون على شكل جديد موحد فى

الكتابة • لأن المصحف مكتوب حتى الآن بالرسم العثماني • والمسلمون لا يريدون أن يفتحوا ذرائع للفتن ، بإدخال أى تعديل على هذا الرسم • ولا يريدون أن تكون للمصحف قواعد خاصة غير قواعد الكتابة العامة تحيله إلى كتاب مهجور • وإذا انفردت إحدى البلاد العربية أو الإسلامية بالتعديل المقترح كان ذلك سبب قطيعة مزدوجة ، إذ يقطعها عن تراثها الإسلامى والعربى الماضى ، كما يقطعها عن عالمها الإسلامى والعربى الحاضر ، مع ما تستتبعه هذه القطيعة من آثار سياسية واقتصادية في إقامة سدٍّ بينها وبين جاراتها ، وفي كساد صحفها وكتبها وكل منشوراتها •

٦ - إثبات الحركات في صلب الكلمات يضحّم حجم الكتاب العربى ، ولا سبباً إذا أضيف إليه إثبات الإدغام والتنوين • وكل ذلك دون طائل • لأن قواعد الكتابة الراهنة تفى بالغرض ، ولا يحتاج القارئ معها إلا إلى قليل من علامات الضبط كلّ بضعة سطور ، عند خوف اللبس • على أن التيسير المقترح لا يُغنى الكاتب عن تعرّف الصواب من طريق القواعد النحوية والصرفية • ومع العلم بهذه القواعد لا حاجة إلى الطريقة المقترحة • ومع الجهل بها لا عصمة للقارئ ولا للكاتب •

٧ - مطابقة الصوت المسموع للصورة المقروءة أكثر توافراً في اللغة العربية منه في سائر اللغات التى يريد دعاة التطوير أن يقلدوها • ولو اتخذنا أمثلة من اللغة الإنجليزية لوجدنا أنها :

أ - تهمل نطق كثير من الحروف مثل h فى honour و gh فى right و through
K فى knife ، و b فى climb •

ب - وهى بعد ذلك تصور الصوت الواحد في صور متعددة • مثل الكسرة الطويلة التى تكتبها العربية (ي) فهى تكتب فى الإنجليزية y-e ، e-e ، ie ، ei ، ea ، ee والكاف فى العربية تكتب فى الإنجليزية Ch ، q ، ck ، k ، c •

ج - ثم إن الحرف الواحد يُنطق في صور متعددة • فحرف c ينطق (س) و (ك) • وحرفا th ينطقان (ذ) و (ث) •

د - ثم ان هناك اصواتا ليس لها حروف تقابلها • لذلك يستعان على تصويرها بأكثر من حرف مثل sh لحرف ش ، th لحرف ذ ، ث •

والخط العربى ليس من ذلك كَلَّه فى شىء • فكل حرف فيه منطوق • ولكل صوت حرف واحد يصوره • والحرف من ناحية أخرى لا يُنطق إلا على وجه واحد ، وبصورة صوتية ثابتة لا تتغير •

أما حروف الحركة (vowels) فهى فى الانجليزية مُربكة ومضللة بأكثر مما هى معينة على الضبط • فحرف (a) مثلاً ينطق على أشكال مختلفة فى (war) ، (rat) ، (Shame) • وكذلك حرف (u) فى (nut) ، (mule) ، (sure) ، (survey) ، (minute) • وكذلك حرف (i) فى (sin) ، (sir) • وحرفا (ea) فى (wear) ، (heart) ، (bread) ، (fear) • وحرفا (oo) فى (blood) ، (poor) ، (floor) •

إن الأمم العريقة التى تحرص على تراثها تتجنب كل ما يؤدى إلى إحداث هُوَّة تفصلها عنه • لذلك ظل الانجليز يحافظون على هذه المفارقات التى أشرت إلى أمثلة منها فى رسم الكلمات ، فى الوقت الذى يتخلص فيه الأمريكيون من كل هذه المفارقات ويرسمون الكلمات كما ينطقونها تماماً • ذلك لأن الانجليز يحرصون على أدهم القديم المكتوب بهذه الصورة التاريخية • أما الأمريكيون فليس لهم قديم يحرصون عليه •

